

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٥٩ المحرم ١٤٣٥هـ السنة الرابعة والثلاثون

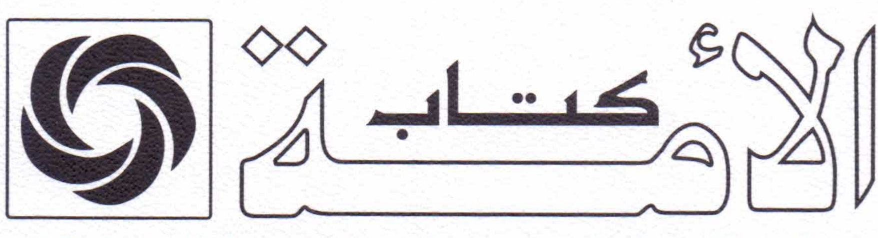
رؤى الإصلاح

عند الإمام محمد الخضر حسين (رحمه الله)

أ.د. المرسي محمود شولح

المرسي محمود إبراهيم المرسي شولح

* من مواليد جمهورية مصر العربية.
* يحمل درجة العالمية (دكتوراه) في أصول الدين، جامعة الأزهر.
* أستاذ مساعد، كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر.
* أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المشارك، جامعة الإمام محمد بن سعود.
* له عدد من الكتب والبحوث المنشورة، منها:
  - منهج الدعوة إلى الله تعالى.
  - خطورة الانحراف عن المنهج العملي للإسلام.
  - كفاية الموارد الطبيعية في مفهوم النظم الإسلامية.
  - حماية الجانب التطبيقي للخطاب من خلال التلقي عند الأصحاب.
  - عمارة الأرض في مفهوم النظم الإسلامية.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة – قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. محاولة لفتح ملف أحد أعلام الإصلاح، وعرض منهجه وأسلوبه في المناصحة.

وتأتي أهمية دراسة حركات الإصلاح وسير الأعلام، واستصحاب تجاربهم؛ لإنارة الطريق والإجابة عن سؤال النهضة، والمساهمة بتسديد المسيرة وتحقيق الاعتبار، ذلك أن تاريخنا الحقيقي هو التاريخ العلمي والثقافي والفقهي، وليس التاريخ السياسي، على كل حال، حيث انفصل السلطان عن القرآن، في وقت مبكر، وكان الحكم أول ما نُقض من عرى الإسلام، فانحازت الأمة إلى القرآن، وشكّل العلماء رموزها وقادتها، وغاب الحكام الظلمة والجهلة من حياتها.

والإصلاح في منهج النبوة غير الانقلاب والتغيير، فالإصلاح ينصب على تحديد أماكن الإصابة، ودراسة أسباب ذلك، ومعالجة مواطن الخلل، بالعلم والحكمة والموعظة الحسنة، والتزام المنهج السنني، والتدرج في التكاليف، بعيداً عن العنف والمواجهة، التي لم تأت بخير على مدى التاريخ الطويل.. والمسلم الحق يهمه انتصار الحق، ويدور معه حيث دار، بعيداً عن التعصب والحزبية وبخس الناس أشياءهم.

وقد تكون الإشكالية في دراسة أعلام الإصلاح وحركات التجديد أن قوامها المديح والتقريظ وتفخيم (الذات) وتزاحم الألقاب، بعيداً عن التقويم وبيان الأخطاء، الأمر الذي يحقق الاعتبار ويفتح الأبصار.

لذلك أصبح من الأهمية بمكان إعادة النظر بمنهج الدراسة حتى نتمكن من الإفادة من تجربتهم ونتجنب عثارهم وأخطاءهم، مع الأخذ بعين الاعتبار أن لحركات التجديد ظروفها وسياقها التاريخي، بعيداً عن التمترس حولها، ومحاكاة وسائلها، بالرغم من تغير الظروف والمشكلات والمجتمعات، وهذا لا يضير حركات التجديد وإنما يضر بالحاضر العاجز عن الإفادة منها، وتوليد أفكار ورؤى تفقه الحاضر وتُبصِر المستقبل وتُحسن التعامل مع الناس.

موقعنا على الإنترنت: www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www. Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E. Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

رؤى الإصلاح

عند الإمام محمد الخضر حسين (رحمه الله)

أ.د. المرسي محمود شولح

الطبعة الأولى

المحرم ١٤٣٥هـ

تشرين ثاني (نوفمبر) – كانون أول (ديسمبر) ٢٠١٣م

المرسي محمود إبراهيم المرسي شولح.
رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين.
الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٣م.
٢١٦ ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٥٩)
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ١٠١/ ٢٠١٣
الرقم الدولي (ردمك): ٣/ ٦٠/ ٩٢
أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa
البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول تعالى:

﴿... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(هود:٨٨)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل التأسيس للنجاح والصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة والتحقق بالوراثة الحضارية منوطاً بفعل الخير وإثارة الاقتداء بمنهج النبوة، والعمل على الدعوة إليه، والانضباط به، والتعاون على البر والتقوى، وتغيير المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ذلك المنهج الذي أكدته النبوات، من لدن آدم، عليه السلام، وحتى النبوة الخاتمة، بوسائل وأدوات متعددة وملائمة للعصر وملائمة لطبيعة الأقوام محل الخطاب، أو محل خطاب الإصلاح، وحسب نوعية الإصابات، التي يعانون منها، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٥- ١٠٧).

فكانت تلك الوراثة شرعة دينية، وسنة اجتماعية، وحقيقة تاريخية، وسمة حضارية، ذلك أن عملية الإصلاح للمجتمع، والارتقاء بالأمة، وبناء حضارة الرحمة للإنسانية ترتكز على تأهيل وإعداد وإنتاج الفرد الصالح في ذاته، الذي يثير الاقتداء، ويغري بالاتباع، بسلوكه وعلاقاته، وتشكيل الطائفة

القائمة على الحق، في ذاتها، وفي علاقاتها، الحاملة لقيم الحق إلى غيرها؛ لأن وجودها يدلل على خلود منهج النبوة وقدرته على الإنتاج في كل زمان ومكان، وتجسده في حياتها، وتنقله إلى الناس، وبذلك فهي تمثل خميرة النهوض الاجتماعي، وتحمي قيم النبوة من التأويل الجاهل والغلو المنحرف والانتحال الباطل، كما أنها تحفظ قيم الدين، كإمكان حضاري، يتحقق بها النهوض كلما تحققت الظروف والشروط وانتفت الموانع، يقول الرسول ﷺ: **«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»** (أخرجه مسلم).

والصلاة والسلام على من اكتمل برسالته منهج النبوة التاريخي، يقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣)، ويقول، عليه الصلاة والسلام: **«إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»** (أخرجه البخاري)، وتوفرت لحضارته مقاصد الرحمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، الذي يأتي في مقدمتها حفظ كرامة الإنسان، واسترداد إنسانيته، واحترام حرية اختياره، وتحرير نفسه وروحه وعقله من العبودية والاستعباد والاستبداد، وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان، وذلك من منطلق الإيمان بوحدة

الخالق، ولذلك كان الجهاد النبوي الكبير والشعار القرآني العظيم، الذي تحول إلى شعيرة وممارسة على الأرض: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾(البقرة:٢٥٦).

لذلك قد لا نستغرب، في حضارة الحرية والمساواة والرحمة والكرامة الإنسانية، أن يشرع الجهاد في الإسلام حماية لحرية اختيار الفرد وعدم إكراهه على ما لا يعتقد، يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ (البقرة:١٩٣)، ذلك أن الإنسان بدون كرامة وحرية اختيار يعيش مأساة إنسانية تلغي وجوده؛ فإلغاء حريته في الاختيار أكبر من قتله وإزهاق روحه، يقول تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ (البقرة:٢١٧).

وبعد:

فهذا «كتاب الأمة» التاسع والخمسون بعد المائة: «**رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين**، رحمه الله» للأستاذ الدكتور المرسي محمود شولح، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بدولة قطر، في اجتهادها المستمر وسعيها الدائب لتلمس الإجابة عن سؤال النهضة عند حركات التجديد والعلماء والرواد والمجددين والمؤسسات والمعاهد العلمية والمعرفية والجامعات والحركات الدعوية ودعوات التغيير والإصلاح، ومحاولة دراستها، وتقويم إنتاجها ومناهجها وكيفية تعاملها مع القيم الشرعية، وفقهها للواقع، وتحديد جوانب النجاح ومجالات الإخفاق، في محاولة لاستصحابها، والاعتبار بتجربتها، ضمن سياقها التاريخي، وملاحظة ظروف الزمان والمكان.

فهاجس الإصلاح كان ولا يزال هو المؤرق الدائم، أو هو القلق السوي، الذي يعتبر مهماز النهوض ورافعة الإصلاح.

إن الانتكاسات المستمرة، والإخفاقات المتتالية، التي أصبحت وكأنها ضربة لازب على الأمة، وعلى الأخص ما يكون تحت شعارات إسلامية، أو ما يحمل منها على القيم الإسلامية، يدعو بإلحاح إلى فتح ملف التقويم والمراجعة وديمومة النظر لتحديد مواطن الخلل، ودراسة أسبابها، وقد يكون الأهم هو الإفادة من عبرتها، وتجنب عثارها، وهذا بالتأكيد لا يخدش سيرتها ولا يحط من قدرها ويغمص جهادها ويبخسها حقها، وإنما يلتم الإفادة من عطائها، وخاصة عندما تشكل تجربتها عبرة وتسديد مسيرة وتصويب رأي.

ونستطيع القول: إن وجهة معظم دراساتنا لحركات التجديد والإصلاح والنهوض لم تحرك ساكناً، ولم تحقق عبرةً، ولم تبصر بحقيقة؛ لأنها في مجملها، مع شديد الأسف، نحت منحى الثناء والمديح والتقريظ وحشد وتزاحم الألقاب، وكأنها معصومة وليست من فعل بشر، ويكاد يكون من الندرة بمكان أن تشير دراساتنا إلى خلل أو تقصير أو تراجع، وتبين أسبابه، الأمر الذي يكرس الركود والتخلف ويحاصر حركات التجديد كتجارب في عمر الأمة، ويوقف عطاءها، ويساهم سلباً في استمرار قيادات الواقع الفاشل البائس، حيث الكثير منا يتخذها أنموذجاً ورمزاً للمقاربة والمحاكاة والتقليد، دون التنبه لظروف الزمان والمكان، وينحصر نشاطه الذهني والعملي في إطار فكرها ومحاكاة وسائلها وتكرار تجاربها، وفي هذا أشد الإساءة لروادنا وحركات التجديد والإصلاح، الأمر

الذي تمثل، على الأقل، في عدم الإفادة من تجربتها وعبرتها، ذلك أن التقويم والمراجعة والنقد واكتشاف مواطن الخلل مؤذن باستمرارها وديمومة عبرتها وتراكم عطائها في بناء العملية النهضوية والمحاولات التجديدية والإصلاحية.

إن الإصابات المستمرة والمتكررة، حتى في نطاق الجيل الواحد، والفشل الذي يكاد يصير مزمناً وضربة لازب لحركات التجديد والإصلاح، التي ترفع شعارات إسلامية -كما أسلفنا- يعني -فيما يعني- أن هناك قصوراً في الرؤية، وسوءاً في التقدير، واختلالاً في ضبط النسب، وخللاً في المنهج، وعناداً واستكباراً بغير الحق، في أحيان كثيرة، وعفوية أو سذاجة في الفعل، بعيداً عن إدراك مدى الاستطاعة وحدود التكليف، وبعيداً عن التخطيط ووضع الاستراتيجيات الملائمة، وحتى بعيداً عن التقويم والمراجعة بعد السقوط والفشل، لتحديد أسبابه والتحقق بعبرته لقابلات الأيام؛ لأننا نرى أن الأمور تتكرر بمقدماتها ونتائجها وجغرافيتها وإنسانها! وكأن هناك محركات (ريموت) تدفعنا حيثما تريد، بعيداً عن اختيارنا وإرادتنا واستطاعتنا وحسابات الربح والخسارة، التي يمارسها الإنسان البسيط، وكأن التخطيط والتفكير والمراجعة يفسد الأمور، ويعطل على البسطاء نشوتهم، ويفسد عليهم أحلام اليقظة، التي يعيشونها والتي عطلت حواسهم، فلا يسمعون إلا أصواتهم، ولا يبصرون إلا أمانيهم.

ولعلنا نقول هنا: إن معظم عمليات النقد والتقويم جاء من خارج حركات الإصلاح والتجمعات والتنظيمات والمؤسسات الإسلامية، جاء من خصومها، بل من أعدائها، منطلقاً من التحيز والحقد والمكر والعداوة.. وهذا، بطبيعة

الحال، أدى ويؤدي إلى مزيد من الانكفاء، والتشبث بالذات، والتصلب في الفكر، والتعصب والإصرار على الفعل، وقد يحمله ويفسره بعض البسطاء على أنه علامة على صحة الوجهة والوسيلة، وبذلك تستوطن الأمراض، ويستمر الخلل، ويكرس العجز، وتعطل المراجعة، ويتحول الجهد إلى نوع من المدافعة، التي سوف لا تبقي مجالاً للنظر في اختبار أحوال (الذات) وأدائها، واكتشاف خللها، وتصويب مسيرتها، وإدانة نفسها، والإفادة من تجربتها.

وقد يكون ذلك من الأسباب الكبيرة للركود والجمود والانطفاء، حيث يستغرق جهدنا الموقف الدفاعي، وليس ذلك فقط وإنما يتحكم بنشاطنا ويرسم لنا مجال حركتنا وتفكيرنا، وبذلك يصبح زمامنا في يد خصومنا، يتحكمون بنا حيثما وكيفما يشاؤون.

ونحن هنا لا نقلل من أهمية الموقف الدفاعي وضرورة البيان ورد الشبهات، ولكن الذي نود أن نُشير إليه اختلال ضبط النسب، وانصراف جهودنا بالكلية إلى الدفاع، على حساب البناء والتنمية والتطوير لإمكاناتنا ووسائلنا، ولو حاولنا استبصار المنهج القرآني في ذلك لقلنا: لو أن القرآن الكريم تمحض نزوله للرد على تمحلات المنافقين والكافرين وأصحاب الشبهات لما تفرغ لبناء أمة وإقامة حضارة وعمران وإيصال الخير والهداية للعالمين.

لقد طرح القرآن من الأدلة والردود على الكافرين والمنافقين، وفند شبهاتهم، ما هو كافٍ لمن يريد الاستدلال والوصول إلى الحق، والذي لم يستدل بها تجاوزه إلى رسالته الأساس؛ لأن المشكلة باتت في المستَدِل وليس في قوة الدليل وبيانه.

واللافت فعلاً أن بعض المشكلات والقضايا والتهم ما زالت تُكال للإسلام والمسلمين من أكثر من قرن، وأن الساحة الإسلامية مشغولة بالدفاع عنها، ولا تزال، وكأن تلك الخارطة من التهم، في مجال المرأة والزواج والإرث والتعدد والشهادة والقضاء، ضربة لازب ملازمة لنا ولأنشطتنا الذهنية لا يجوز لنا مغادرتها والنظر في أحوالنا، وكأن الردود لقرن تقريباً غير مقنعة، فما نزال نُبدي ونعيد، وكأنها فخاخاً منصوبة لنا وحِجراً محجوراً علينا.. فأين هذا من منهج الوحي، الذي ننتسب إليه وندَّعي التعامل معه؟

وقضية أخرى ملفتة أيضاً، وتكاد تكون قديمة جديدة، وهي أن محاولات المخادعة والمكر، التي يقوم بها أعداء الإسلام والمسلمين وخصومهم، من حيث عدم التفريق بين قيم الإسلام المعتدلة المتسامحة المنفتحة القابلة للآخر وبين مسالك التشدد والتطرف والعنف، التي يمارسها بعض الذين ينتسبون للإسلام، وبيان خطورتها على المجتمعات، نقول: لو كانت محاولاتهم صادقة لاقتضى الأمر زيادة في التوعية بقيم الإسلام الصحيحة وفقه مقاصد الدين، على كل المستويات، في الأسرة والمدرسة والجامعة والجامع والتعليم والإعلام وسائر المؤسسات التربوية، لكن الذي نراه مقابل ذلك إلغاء القيم الإسلامية الصحيحة من مجالات الحياة، وإقصاء المتدينين من الوظائف والمواقع المؤثرة، وحتى المعتدلين منهم، وحرمانهم من أبسط حقوقهم ومن الفرص المكافئة لأقرانهم، وزجهم بالسجون والمعتقلات، هذا عدا عن التصفيات الجسدية لهم، باسم تجفيف المنابع، الأمر الذي يدفعهم، في غياب الحرية والمساواة، إلى ممارسة العنف والتشدد دفعاً.

ولعل القضية تهدف، في حقيقتها، إلى صناعة التطرف، لتشويه صورة الإسلام، حتى أصبح الإسلام يعني التطرف، وإيجاد الحواجز بين المسلمين ودينهم، ومن ثم إيجاد المسوغات لضرب الإسلام والمسلمين، وإيجاد المناخ الملائم لقبول ذلك من جماهير الأمة؛ فهل يبتلع الإسلاميون الطُعم ويقعون فريسة ويصبحون الضحية التنفيذية لذلك؟ وإلى متى يتحولون إلى أدوات على المسرح العالمي، أو في اللعبة الدولية، تُصفى الحسابات بدمائهم، وتُحفر لهم الحفر هنا وهناك ليسقطوا فيها؟

وعندنا أن التشدد والغلو والتطرف العنف يجافي طبيعة المنهج النبوي، ولم يأت بخير طيلة تاريخنا الطويل، وهو مدانٌ على كل حال، فليس الشديد بالصُرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، والحق أحق أن يُتبع، ولو جاء من الخصوم والأعداء، ولنا في منهج الرسول ﷺ أسوة، ولنا في قيم القرآن الخالدة المجردة عن حدود الزمان والمكان دليل، فلقد اعترف الرسول ﷺ بوقوع القتال من المسلمين في الشهر الحرام، الأمر الذي عابه الكفار عليهم؛ لأنهم اخترقوا حرمته من قِبل سرية عبد الله بن جحش ﷺ ونزل في ذلك قرآن يُتلى إلى يوم القيامة.

فالاعتراف بالخطأ وتصويبه، مهما كان مصدره، هو سلوك إسلامي ومنهج قرآني، لكن الأمر لم يقتصر على الاعتراف والتصويب، على مستوى (الذات)، وإنما تم توظيف الخطأ بشكل إيجابي، وذلك عند عقد مقارنة بين خطأ المسلمين وممارسات وأخطاء الكافرين المتراكمة، فردّهم على أدبارهم،

يقول تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ (البقرة:٢١٧).

نعاود القول: إن التطرف والتشدد والتعصب يناقض سماحة الإسلام ومنهج النبوة، وهو مدانٌ على كل حال وبكل الأشكال، لكن من الضرورة، كسبيل للعلاج، إلى جانب الإيضاح والبيان والتفقه في الدين، النظر في أسبابه وأهداف صناعته المشبوهة ومحاولات اختراقه العمل الإسلامي لإجهاضه وإحباطه؛ حرصاً على الوقاية منه والعلاج والعمل على إظهار خُلق الإسلام وسماحته.

وقد يكون من المفيد هنا، وبعد هذه الإصابات على مستوى (الذات)، التي مكنت لامتداد (الآخر) وإصاباته وامتداد فعله ومكره في الحياة الإسلامية، قد يكون من المفيد أن نشير إلى منهج ذلك الصحابي (حذيفة بن اليمان ﷺ) ذي الحواس المتيقظة المتقدمة عندما كان يسأل الرسول ﷺ عن الشر، في الوقت الذي يسأل فيه بقية الأصحاب عن الخير ليفعلوه، كان هو يسأل عن الشر مخافة أن يدركه.. فهل لنا أن نقول: إنه في أوقات الفتن والأزمات والتباس الأمور واختلاطها يصبح تحسس الشر واستشعاره والسؤال عنه وإدراك أبعاده آكد، حتى لا يدركنا؟ فلقد بلغت الغفلة منا مبلغاً.. وكثيرةٌ كثيرةٌ تلك الآيات والعبر، التي نمر بها وتتكرر فينا ونحن عنها غافلون!

فالفتن والأزمات تتطلب عيناً بصيرة وآذاناً واعية لتجنبها، أو لتجاوزها بأقل قدر من الخسائر، وعدم الهياج والخوض مع الخائضين، والوقوع فريسة للإذاعة والإشاعة، وفقدان المقدرة على الرؤية السديدة.. ويحضرني هنا قولة

الصحابي الجليل، صاحب أعلى إسناد في الحديث، عندما عاب عليه بعض الأصحاب عدم الخروج والقتال والمشاركة في الفتنة، التي عصفت بالمسلمين في زمانه، وعدم استجابته لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، فكان جوابه: «قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ»(أخرجه البخاري).

إنها رؤية مبكرة للنفق المظلم، الممتد بتداعياته وتراكم فتنه أكثر من أربعة عشر قرناً!

فهل نبصر ماذا نعمل؟ وهل نبادر بالعمل الصالح وعمليات الإصلاح على مستوى (الذات) و(الآخر)، حتى نُحاصر الفتن، استجابة لقول الرسول ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ»(أخرجه مسلم)؟

إن الإصلاح والبناء هو سبيل الخروج من الفتنة، وهو لون من القتال والجهاد حتى لا تكون فتنة، وتفويت الفرص على من يساهمون بسوق الأمة إلى حتفها، لسوء تقديرهم وعدم رؤيتهم للعواقب ومعرفتهم للإمكانات.

وهل نُدرك أبعاد الفتن المصنوعة لهذه الأمة، وكيف أنها تشكل مناخاً ملائماً لأنواع من الابتزاز والتكسب وصناعة الزعامات، التي لا ترى فرصتها إلا في الأحوال الملتبسة؟

إن الخوف من الزلل والانحراف والسقوط في المعاصي كان يدفع دائماً الصحابة للعودة إلى الرسول ﷺ وسؤاله عن الخير ليفعلوه ويستزيدوا منه ويطمئنوا إلى مسالكهم، وكان بعضهم يحرص على السؤال عن الشر، حتى

لا يدركه ويسقط فيه، وكان منهم من يعرض ما يقوم به من عمل، وهل الاقتصار عليه يدخله الجنة... وهكذا كانت المراجعات مستمرة توخياً للصواب وتحرياً للحقيقة واطمئناناً على سلامة المنهج وحسن التأسي والاقتداء.

وتتأكد هذه المراجعات، كما أسلفنا، في أيام الفتن والتباس الأمور، ولئن كان الرسول ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى فإن قيم الوحي في الكتاب والسنة والتجسيد العملي في السيرة الصحيحة وصلتنا بطرق علمية لا يتطرق إليها الشك، وأن في استنطاقها للإجابة عن حلول لمشكلاتنا والنجاة مما يحيط بنا من فتن، وحسن تنزيلها على واقعنا، هو سبيل الخروج ووسيلة القبول والفوز.

وفي تقديري أن الفجوة الكبرى في مسيرتنا والتي قد تكون وراء الكثير من فشلنا وإخفاقنا إما أنها بسبب تعطيل المراجعة ودراسة مدى انطباق فعلنا على منهج الوحي، وإما بسبب سوء الاقتداء وعدم القدرة على تحديد الاستطاعة في كل مرحلة وتحديد موقع الاقتداء الملائم من مسيرة السيرة وكيفية التعامل مع القرآن في تنزيل الآيات، التي تتناسب مع واقعنا واستطاعاتنا، والعدول عن العبث بقيم الوحي وقراءتها على هوانا، والانتقاء منها، وإسقاطها على حالنا لتبرير واقعنا، دون أن يخطر ببالنا أن نراجع محل التكليف أو محل التنزيل، وهل تتوفر له الشروط المطلوبة؛ لأن فقه المحل لا يقل أهمية عن فقه النص، بل هو من لوازم فقه النص.

من هنا نقول: قد نكون بأشد الحاجة للمراجعة والمقارنة والمقاربة لدراسة مدى انطباق مسيرتنا على منهج النبوة، واكتشاف مواطن الخلل ومعالجتها

بجرأة وشجاعة؛ لأن الواقع المحزن، الذي نعاني منه وندّعي نجاحات وانتصارات موهومة، تغطية للفشل، أكبر دليل على سوء اقتدائنا وفشل اجتهادنا، حتى ولو رفعنا شعارات إسلامية كبيرة.

لذلك قد يكون من المفيد في مناخ هذه المآسي والتنابز والتلاوم والتراجع والفشل، أن نذكّر بملامح منهج النبوة، ومن ثمّ يصبح ذلك سبيلاً لنعاير سلوكنا وتصرفنا فنحدد الخلل، ونضع خطة للتوبة الفكرية والعملية والاستراتيجية والدعوية، لعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً.

وقد يكون من الضروري أن نوضح ابتداءً، حتى نتحقق بالاطمئنان واليقين وعدم الالتباس، أن معيار التقويم والمراجعة ليس من وضع البشر، وإنما هو قيم ثابتة ومتأتية من الوحي، في الكتاب والسنة ومسيرة النبوة التاريخية، لذلك فهو بطبيعته من عليم خبير، بعيداً عن الانحياز والقصور والمحاباة، الموسوم بها الإنسان، ويمتلك الدليل والتجربة العملية التاريخية.

ولعل من أبرز ملامح منهج النبوة أن: هدفه الأساس أو مهمته الأساس تتمحور حول عملية إبلاغ خطاب الله للإنسان، وإغرائه باتباعه؛ لأن في ذلك خلاصاً له، كما أسلفنا، يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (العنكبوت:١٨)، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النحل:٣٥)، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ (الأعراف:٦٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ

﴿يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (المائدة:٦٧)، إلى آخر هذه الآيات التي تملأ الكتاب في بيان مهمة النبوة، إما تصريحاً أو تلميحاً.

لذلك فإن كل المساومات ومحاولات تحويل وجهة الرسالة ومهمتها عن طريقها باءت بالفشل، رغم المغريات الكبيرة من الثروة والسلطة والمتعة، وقد لا نكون بحاجة إلى أن نذكِّر بأن جواب الرسول ﷺ خاتم الأنبياء، على ذلك، على الرغم من هذا الإغراء: «**وَاَللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ**» (السيرة النبوية لابن هشام)، وكان مطلبه الوحيد وهدفه الأساس البلاغ للرسالة: «**خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاس**».. فالنبوة، في مقاصدها الأساس، ليست لجمع الثروة، ولا لاستلام السلطة، ولا لصنع الزعامة، بل هي سبيل للإصلاح، واستنقاذ الإنسان مما هو فيه.

فهل ندرك أن المقصد التخلية بيننا وبين الناس، والعمل على رفع الحواجز دون الناس، بدل وضعها، حتى بين أتباع النبوة؟

ولعل التوقف والتأمل والتبصر، ولو بأقدار بسيطة، عند سمات منهج النبوة يدعونا للمراجعة والتقويم وإصلاح الخلل واكتشاف الفجوة الكبيرة بين واقعنا ومنهج النبوة، وتفسير ما لحق بنا من إصابات واختلالات وهزائم وفشل وتحكم من (الآخر)، وعلاجها قبل أن تحيط بنا أخطاؤنا؟

ويأتي في مقدمة هذه السمات، بعد البلاغ النبوي، عدم الإكراه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦)، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن

وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩)، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢٢)، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ (الكافرون:٦)، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (القصص:١٩)، ذلك أن من سمات منهج النبوة حفظ كرامة الإنسان كإنسان، مؤمن وغير مؤمن، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء:٧٠)، فليس من المعقول ولا المقبول للرسالة، التي جاءت لحفظ كرامته أن تبدأ بهدرها بالإكراه والغصب والقهر، ذلك أن الأفكار والعقائد، كما هو معلوم، محلها القلب وداخل الإنسان، ولا سلطان لأحد عليه إلا سلطان الدليل والقناعة والاختيار، فالمهمة النبوية تتركز بالبلاغ المبين (البيان) والبرهان والدليل وليس بالإكراه والإجبار، يقول تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥)، ويقول، مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾(الرعد:٤٠).

والحقيقة الغائبة الحاضرة أن استقراء التاريخ القديم والمعاصر يحمل لنا الدلالة، التي لا شك فيها، أن الإسلام والعمل الإسلامي انتشر وانتصر في أوقات السلم والحرية والأجواء الطبيعية، وانكمش في أوقات الرعب والإرهاب والاستبداد السياسي، لذلك كان الإتيان بالأنظمة القمعية والديكتاتورية للحكم، لحماية الاستبداد وإشاعة الرعب، ونشر أجهزة الأمن في العالم الإسلامي هو الخيار الأمثل لمحاصرته، وإطفاء فاعليته، وأكثر من ذلك ممارسة

الضغط عليه وجرّه للمواجهة غير المتكافئة؛ لتكون مبرراً لمحاربته، والتنكيل بأهله، واتهامهم بشتى أنواع التهم!

فمحاربة الإسلام وشل حركة العمل الإسلامي تستدعي حكم الأنظمة القمعية العسكرية، وتستدعي الأحكام الاستثنائية، وتسويغ أحكام الطوارئ، لإقامة الحواجز بين الناس وقيم الدين؛ وليس ذلك فقط، فكثير ممن أُتي بهم لحكم عالم المسلمين ممن لا يمتلكون رصيداً شعبياً أو اجتماعياً أو تاريخياً؛ لأنهم أجسام غريبة عن عقيدة الأمة وحضارتها وهويتها وتاريخها، لذلك كان لا بد لهم من الحماية، التي تضمن لهم البقاء والاستمرار، لا بد لهم من العسكر لحماية وجودهم وتأمين استمرارهم، الأمر الذي أوقع بعض الإسلاميين في الفخاخ المنصوبة لهم، ودفعهم لأن يختزلوا قيم الإسلام بالمغالبة السياسية على الحكم، ويعتبروا القوة والمواجهة هي وسيلة التغيير الوحيدة، بعيداً عن التزام منهج النبوة، بعطائه وشموليته.

ولعل فترات الحرية والديموقراطية كانت من الفرص الذهبية لانتشار الإسلام، وحسبنا في صلح الحديبية دليلاً، فقد تضاعف عدد المسلمين أثناء السلم والهدنة أضعافاً مضاعفة، حتى سمي الصلح بالفتح المبين: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١).

ومن سمات منهج النبوة: التحرير من العبودية لغير الله، والارتفاع بالإنسان إلى الإيمان بالله الواحد، رب الإنسانية جميعاً، فلا إله إلا الله، وهو رب الناس جميعاً ولا ربّ سواه، وفي ذلك تحرير لروح الإنسان وضميره وعقله وواقعه من التسلط والتأله، وإعلان مبدأ المساواة وعدم التمييز، ونسخ

الألوهيات، لذلك كانت قولة الأنبياء جميعاً: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ (الأعراف:٦٥)، وكان شعار «لا إله إلا الله» هو بوابة الإيمان في الرسالة الخاتمة، والانتقال والتحول والخيار الجديد، وأن الرافضين لمنهج النبوة إنما يرفضونه لأنه يسوِّيهم بغيرهم، وهم يريدون أن يكونوا آلهة وكبراء؛ فالوحدانية تعني الحرية والكرامة والمساواة.

وهذه الدعوة، أو هذه المهمة الرسالية ترتكز على الاحتساب والتجرد، وذلك يمنح صاحبها وأتباعها وورثتها صدقاً وزخماً وقوة، ويضع حداً للابتزاز والتكسب بالدين وترَفُّع أهله عن الناس، لذلك كان شعار النبوة، أو إن شئت فقل: ميثاقها الدائم، ما حكاه عنهم الله في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ (الشعراء:١٠٩)، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝﴾(يس:٢١)، وبذلك صوّبت النبوة الخاتمة مسيرة التدين، وأوقفت علله التاريخية في التكسب والابتزاز وأكل أموال الناس بالباطل، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝﴾(التوبة:٣٤).

وفي هذا المجال الخطير، كم نحن بحاجة لمراجعات في واقعنا، حيث الكثير منا يحمله الإسلام، ويعتاش به، ويقبض ثمن التدين، أو ضريبة التدين، ويقيم من حوله أتباعاً وإمبراطوريات تعمل على تعظيمه، بدل أن يحمل

الإسلام إلى الناس بتجرد واحتساب ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾(هود:٥١)، ويسعى لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

فأين واقعنا من منهج النبوة، حيث بات يقتصر الاقتداء، في أحسن الأحوال، على التقليد في اللباس والطعام والشراب وبعض المظاهر الأخرى، على ما في ذلك من خير، لكن المشكلة الاقتصار عليه دون ما عداه، ونخشى أن نقول: نقع في مدلول قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ (الأنعام: ١٢٠).

ومن سمات منهج النبوة في الرسالة الخاتمة، التي اجتمعت لها أصول رسالات الأنبياء وكمالاتهم وصفاتهم جميعاً، إلى جانب التجرد والاحتساب: الاعتقاد الجازم أن عملية البلاغ وإيصال الخير للناس وإصلاح شؤونهم وإخراجهم من هوى أنفسهم هو السبيل إلى النجاة والحماية من الطغاة والعصمة والوقاية من شر الظالمين، والوسيلة الأمثل لإثارة الاقتداء والإغراء بالاتباع وتحقيق مقاصد الدين، يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ (المائدة:٦٧)، ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ ...﴾(الجن:٢٢-٢٣).

ولعل التأمل في هذه الآيات كاف لبيان منهج النبوة في الإصلاح، ورسالة المسلم في الحياة، وسبيله للوقاية من الإصابات وإنقاذ النفس والناس من الهلكة.

ومن سمات منهج النبوة الخاتمة، التي هي جماع النبوات: التزام المنهج السنني، وتأكيد أهمية اكتشاف السنن الجارية ومعرفة قوانين الأشياء، التي تحكم حركتها ووجهتها، وأن رسالة المسلم وتكليفه امتلاك القدرة على كشفها وتسخيرها، والاعتقاد أنها أقدار الله، وأنها ماضية في الحياة والأحياء، وأن هذه الحياة لم تُخلق عبثاً، يقول تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب:٦٢)، وأن المسلم الحق ليس الذي يفتقد الفعل والفاعلية ويتحول إلى آلة صماء، وإنما المسلم الحق هو الذي يفر من قدر إلى قدر، ومن سنة إلى سنة، الذي لا يستسلم للقدر وإنما الذي يغالب القدر بقدر أحب إلى الله، كما يقول ابن القيم، رحمه الله، وأن سبيل النهوض والإصلاح اكتشاف هذه السنن وإدراك فاعليتها في الحياة، وإبصار كيفية التعامل معها، وحسن تسخيرها؛ فمنهج النبوة لم يبن على الخوارق والمعجزات وإنما تحقق فعل النبوة في حياة الناس من خلال عزمات البشر، ولم ينتظر جيل خير القرون ولم يتطلع إلى السنن الخارقة، التي شأنها إلى الله: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد:٤).

وقد يكون من الأهمية بمكان التوقف، ولو بقدر بسيط، عند سنة المدافعة، التي لا يبصرها ويحسنها إلا الأذكياء من الناس، وهي من أبرز سمات منهج النبوة، حيث امتلاك إمكانية حسن توظيف القوة البسيطة لتؤدي دورها الكبير في المغالبة والمواجهة مع القوى الكبرى والعظيمة؛ فمن نعم الله وحكمته في تسيير الكون: التناقض في المصالح والأهداف وتعدد القوى والآراء، الأمر

الذي يوجد مكاناً لفاعلية الحق والعدل بين صراعات الظلم والظالمين، ويكون لهذا التوظيف البسيط، إذا أُحسن استخدامه، من القدرة على التغيير والفاعلية أكثر من القوة الغاشمة الكبيرة.

ولنا في أنموذج غزوة الأحزاب العبرة الواضحة والخالدة، فعندما رمى الأعداء المسلمين عن قوس واحدة، حيث اجتمعت عليهم قريش وبنو قريظة من يهود وقبائل غطفان، واشتد الحصار حتى زُلزل المؤمنون وبلغت القلوب الحناجر، واهتزت النفوس وكثُرت الظنون، وكاد الرسول ﷺ أن يصالح على بعض ثمار المدينة، خروجاً من المصيبة وحقناً للدماء، وكان أن أسلم نعيم بن مسعود ﷺ وتسلل ليلاً إلى الرسول ﷺ وأخبره: «إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ» (انظر: لَمْ يَعْلَمُوا) فقال له الرسول ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا، إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ**».. فذهب وأحسن القيام بالمهمة والمخادعة، فكان ما كان من الإيقاع بين الأحزاب وإثارة الخلافات والتناقضات مما هو معروف في مظانه من كتب السيرة (ابن هشام).

لقد كان لحكمة رجل وذكائه وقدرته على التصرف في الظروف الصعبة قدرة جيوش وثبات مؤمنين وتحقيق نصر؛ فهل من سبيل لسنن المدافعة، التي لايحسنها إلا الأذكياء، والتوقف عن المواجهة، التي تُشكل فخاخاً لإسقاطنا فيها؟

وهكذا مسيرة النبوة، من بدء الوحي ﴿اقْرَأْ﴾ إلى ختام النبوة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣)، تعاملت مع السنن الجارية في النصر والهزيمة، والقوة والضعف،

والدعوة والدولة، ولم يقعد المسلم الحق عن الفعل في غرفة الانتظار ويدعو الله أن ينصره، بدون كلفة وتضحية!

من هنا نرى أن من الإصابات الكبرى، على مستوى التصور والفعل، بالنسبة لمسلم التخلف، القعود عن التعامل مع السنن الجارية، وانتظار فعل السنن الخارقة، ومحاولة انتقاء بعض النصوص وتفسيرها أو تأويلها تأويلاً تخلفياً لتسوغ له فشله أو قعوده.

وبهذه المناسبة، أكتفي بذكر فعل واحد لجيل خير القرون، لعل فيه الدلالة الكافية.. فعندما «اسْتَحَرَّ القتلُ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ»، خاف سيدنا عمر ﷺ على ضياع القرآن، فذهب إلى الخليفة أبي بكر ﷺ يقنعه بأهمية جمع القرآن، حفظاً له من الضياع، ولم يُذكر أن أحداً من الصحابة اعترض على هذا الفعل أو التوجه بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، فكيف نخاف ضياع القرآن وقد تعهد الله بحفظه؟ وإنما أدرك الجميع أن الحفظ إنما هو من خلال عزمات البشر.. وهكذا شأن الفعل الإسلامي، أنه فعل جارٍ على السنن الطبيعية وليس قائماً على الخوارق والمعجزات.

ولعل من سمات منهج النبوة البارزة، ومن ثمرات التعامل مع السنن الجارية: ربط التكليف بالاستطاعة، استجابة لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(البقرة: ٢٨٦).

صحيح أن التعاليم الإسلامية جميعاً واقعة بمقدور الإنسان، وهو يسعى دائماً لاستكمالها، لكن الاستطاعة، على مستوى الفرد والأمة، تتفاوت من زمن

إلى زمن، ومن شخص إلى شخص، ومن مكان إلى مكان، ومن ظرف إلى ظرف، وأقدار التدين لا تبقى في مستوى واحد، لذلك رأى الكثير من العلماء المصلحين الأعلام، كابن تيمية والشاطبي وغيرهم، رحمهم الله، أن فاقد الاستطاعة لا يرد عليه التكليف أصلاً، وأن الإنسان إذا بذل جهده واستفرغ وسعه واستطاعته فقد أدى الإسلام المنوط به، ولو لم يستكمل فروعه جميعاً، شريطة أن ينوي وأن يسعى لاستكمالها، فهو يؤمن بالقيم الإسلامية والتكاليف الشرعية جميعاً، وينفذ منها ما يستطيع؛ فلحالة النصر أحكامها، ولحالة القوة أحكامها، ولحالة الهزيمة أحكامها، ولحالة الضعف أحكامها، ولحالة الدعوة وسائلها، ولحالة الدولة أدواتها؛ أما المجازفة في تنزيل الأحكام على غير محالها دون النظر للاستطاعات والظروف المحيطة فيوقع بمضاعفات خطيرة، ويهدر طاقات في غير مكانها، ويجعل المسلم يخسر ما يملك بوضعه في ما لا يملك.

فالرسول ﷺ بقي ثلاثة عشر عاماً في مكة لم يكسر صنماً، ولم يستفز الكافرين بفعل، أما بعد فتح مكة وامتلاك الاستطاعة فأول ما بدأ به كنس الأصنام وتطهير البيت من رجس الأوثان؛ وأعتقد أن الكثير من الخسائر والإصابات، التي تلحق بنا، إنما هو ثمرة لسوء التقدير وعدم التعامل مع السنن الجارية، والقيام بمجازفات لم يكلف الله بها، انتظاراً للسنن الخارقة، واستدعاءً لها.

ومن ثمرات ربط التكليف بالاستطاعة، في منهج النبوة، ومن سماته البارزة: التدرج في الارتقاء بالناس، والأخذ بيدهم إلى الالتزام بأحكام الدين، عقيدة وعبادة وشريعة، شيئاً فشيئاً.

ولعل أول ما نلمح من منهج النبوة في التدرج: تدرج النبوات وتتابعها في تأهيل وتحضير الإنسان إلى مرحلة الرشد، والانتهاء إلى الرسالة الخاتمة.. كما أن مسيرة الرسالة الخاتمة وبناءها للإنسان استمرت ثلاثة وعشرين عاماً، مرّت بكل الحالات والأحوال والاستطاعات، التي يخضع لها الإنسان، حتى كان الاكتمال فيها لرسالة النبوة ومنهج النبوة التاريخي وبناء الأنموذج، لذلك أرى في قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أفقاً أبعد وأعمق من فترة نبوة محمد ﷺ، أرى فيه اكتمال منهج الأنبياء، اكتمال الدين وكماله، فهو ثمرة لسنة التدرج التربوية، السنة الجارية في الحياة والأحياء.

ونعاود القول: إن سنة التدرج من استحقاقات الاستطاعة ولوازمها، وهو أيضاً من أهم الأسس التربوية في بناء الاستطاعة والارتقاء بها، وتعظيم أمر التكليف، والارتقاء به أيضاً.. وهذا هو الأمر الطبيعي والفطري، فالإنسان يتدرج في ارتقاء عضويته وخصائصه وصفاته وملكاته، ولكل مرحلة استحقاقاتها.. والتدرج هو منهج النبوة، منهج اللبنة، فالرسول ﷺ يقول: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**» (أخرجه البخاري).

ولنا في الفعل النبوي والممارسات الدعوية خير شاهد ومثال، فوصية الرسول ﷺ إلى معاذ ﷺ عندما أرسله إلى اليمن، داعياً إلى الإسلام، فيها منهج العمل المتدرج، في إطار العقيدة والعبادة والتشريع، ذلك «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: **كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟** قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: **فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟** قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .. قَالَ: **فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟** قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلا آلُو.. فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدْرَهُ وَقَالَ: **الْحَمْدُ لِلَّهِ، الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ**»(أخرجه أبو داود).

وقد يكون في نزول القرآن حسب الظروف والمناسبات، وتوالي نزوله لمعالجة الحالات، التي عليها الناس والأخذ بيدهم شيئاً فشيئاً حِكَمٌ بالغة ودلالات مهمة، ذلك أن محل النزول البشر، الخاضعون للسنن الجارية، قوة وضعفاً واختياراً وقبولاً ورفضاً، وهم ليسوا ملائكة مسيرين مبرمجين على فعل الخير، لاخيار لهم.. لذلك تعامل القرآن في نزوله وتنزيله مع السنن الجارية، أما التغيير من خلال السنن الخارقة والقوة الخارقة والمعجزة الخارقة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فأمر السنن الخارقة إلى الله وليس من تكليف الإنسان، ولا من قدراته.

وقد تكون الإشكالية الكبرى، بعد اكتمال بناء الأنموذج: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ في كيفية التعامل مع القرآن وتنزيله على واقع الناس، المتغير، أو مدى وكيفية التدرج في تنزيله، وكذلك الحال بالنسبة للسيرة وحياة خير القرون، ذلك أن القرآن كان ينزل حسب الحالات، ويعالج ما يتعرض له الناس، ويقدم الحلول والأحكام لكل الإشكالات -وأسباب النزول من علوم القرآن المعروفة- وكذلك تنزيل هذه الآيات على واقع الناس، وتجسيدها في حياتهم المتطورة والمتغيرة حسب

الأحوال والاستطاعات؛ ولعل في عدم ترتيب القرآن حسب أزمنة النزول مؤشر واضح على أهمية فقه التنزيل وفقه الواقع، الذي هو محل التنزيل؛ لأنه يخشى من ترتيبه حسب أزمنة النزول أن تحكم سيرورة الزمن، في عصر النبوة، بالدعوة والاستطاعة، الأمر الذي يناقض طبيعة الحال.

فكيف ننزل القرآن، منهج النبوة، اليوم على حياتنا، بعيداً عن عبث من لا فقه لهم بأحكامه؟ وكيف نميز بين فقه التنزيل، الذي يأخذ باعتباره فقه المحل وتوفر الاستطاعة واتباع سنة التدرج، وبين آلية الإسقاط، التي تنزل الأحكام على غير محالها، أو على الأقل دون توفر شروط محل الحكم، فتُحول الأحكام بذلك من حل إلى مشكلة، كما هو الحال اليوم؟

وكيف نعيد قراءة واقعنا، ونفقه الموقع المناسب له للاقتداء من مسيرة السيرة، ونحاول بناء مقاربة مع خير القرون تثير الاقتداء، ونفتح النافذة المغلقة على حقيقة منهج النبوة، ونخلّص القيم الإسلامية من الفهوم المعوجة، التي نمارس تطبيقها بشكل عشوائي ومشوّه، وبذلك لا نكتفي بتنفير الناس من الإسلام، حتى من هم من أهله، والهروب منه، في الحاضر البائس، وإنما يمتد أثرها السلبي لاغتيال الماضي المضيء للقيم الإسلامية ومنهج النبوة وحضارة النبوة، وإقامة الحواجز النفسية بيننا وبين مصادر القوة والنهوض في حياتنا.

إن سوء الفهم، وسوء التطبيق، وسوء التأويل، وقولبة القيم الإسلامية حسب الفهوم المعوجة، وإقامة الإمارات المصنوعة هنا وهناك، وأخذ المبايعات من الشباب، وإثارة حماسهم، وزجهم في أتون المعارك الخاسرة والانصياع

للقيادات الفاشلة، باسم الدين والتدين والخوف من الميتة الجاهلية، وربطهم بالسنن الخارقة والمعجزات، بعيداً عن إدراك السنن الجارية وحدود التكليف، وترك ما نملك إلى ما لا نملك، سوف يكرس الفشل، ويشيع الثقافات المغشوشة، ويحاصر القيم في مجتمع مغلق وفهم محدود ومجتزأ، بحيث يصبح تأويلها حكراً على بعض الجماعات والتنظيمات، التي ترفع شعارات الإسلام ويتمحض نشاطها في المغالبة السياسية فقط، دون توفر المؤهلات المطلوبة لذلك، الأمر الذي لا يمت إلى حقيقة الإسلام ومنهج النبوة بصلة.

ومن سمات منهج النبوة أنه يعتمد الدعوة بالحجة والحكمة والموعظة الحسنة، يقول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل:١٢٥)، ويقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦)، ويقول: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ (البقرة:٨٣)، ذلك أن الغاية من النبوة هي استنقاذ الناس من الشرك والضلال والظلم والاستعباد والاستبداد، وإلحاق الرحمة بالعالمين، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

وبالإمكان القول: إن منهج النبوة قائم على الدعوة، والاستقامة في السلوك، والعدل في الحكم، والبرهان والعرفان والبيان في الإقناع، وعدم الإكراه، كما أسلفنا: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ (البقرة:١١١)، ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ (الإسراء:٣٦)، ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ (الأنعام:٨٣)، بينما نجد السبل الخارجة على النبوة، الفاقدة لقوة الحق

والعدل تعتمد القوة والبطش والهيمنة والسلطة الغاشمة والقهر والإكراه، عند عجزها عن مقارعة الحجة بالحجة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (إبراهيم:١٣)، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ (الأنبياء:٦٨)، ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (يوسف:٣٥)، ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (طه:٧١)، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال:٣٠).

فمنهج النبوة منهج إقناع وبرهان وبيان وتأكيد على حرية الاختيار، وتاريخ النبوة الحقيقي وعطاؤها هو التاريخ العلمي الفقهي الثقافي؛ أما التاريخ السياسي فعبارة عن ومضات بسيطة في مسيرة الأمة، فكم طوى التاريخ السياسي مستبدين وطغاة وظلمة، تلاحقهم اللعنات، وتحيط بهم جرائمهم، وكم أشاد بذكر العلماء والفقهاء والقضاة والمفسرين والمحدثين، الذين لم يتوقف عطاؤهم، على الرغم من مضي الزمن وتطاول الأيام، فأول ما يُنقض من عرى الإسلام الحكم، حيث انفصل السلطان عن القرآن مبكراً، وعزل العلماءُ والمصلحون الحكمَ الظالم عن ضمير الأمة، ومفاعيلها في المجتمع، فكان للعلماء ورواد الإصلاح الدور الأساس في بناء مسيرة الأمة، ووقايتها من الانحراف.

ومن سمات منهج النبوة أنه خطاب إنساني، للناس جميعاً، وأن تعاليمه وقيمه تدور مع الحق حيث يدور، ويعترف بما عليه الناس من خير، ويتوسع في دوائره، ويغري باتباعه، ويشجع عليه، ويحاصر الشر، ويبين فساده، ويحذر من

عواقبه، ويعين على تجاوزه، ولا يبخس الناس أشياءهم، ويلتقي مع الجميع على التعاون على قيم الخير، على البر والتقوى.

فمنهج النبوة يقوم على المناصحة، فالدين النصيحة، والإصلاح لمواطن الخلل والفساد، والابتعاد عن التعميم أو عمى الألوان، بحيث يصبح الهدف الخروج والتغيير والانقلاب على كل شيء؛ فمنهج النبوة سبيله الدعوة والمناصحة والبرهان والبيان والبلاغ والحوار والمدافعة والرحمة بالناس، وليس المواجهة.

فالمواجهة والإكراه والانقلاب واستخدام القوة ليس من قيم النبوة في شيء، مهما كانت المعاذير، والعنف والمواجهة لم يأت لنا بخير طيلة تاريخنا الطويل، ذلك أن طبيعة القيم الإسلامية تأبى العنف والإكراه؛ لأن العقيدة محلها القلب، ولا سلطان لأحد عليه إلا سلطان الدليل والبرهان والقناعة -كما أسلفنا- فالشعار الكبير، الذي استرد إنسانية الإنسان وحفظ كرامته: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾، ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦).

ومن سمات منهج النبوة: الاعتراف بالخطأ دون لبس أو التواء، كما أشرنا سابقاً، والتوبة العملية والفكرية منه، وكلنا يذكر ما وقعت به سرية سيدنا عبد الله بن جحش ﷺ من القتال في الشهر الحرام، وما حاوله المشركون من العيب على المسلمين من انتهاك حرمة الشهر الحرام، ونزل في ذلك قرآن يتلى إلى يوم القيامة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾.

ولقد جاء في خبر السرية: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ ﷺ فِي رَجَبٍ، مَقْفَلَهُ مِنْ بَدْرٍ الأُولَى، وَبَعَثَ مَعَهُ ثَمَانِيَةَ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ...

وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا وَأَمَرَهُ أَنْ لا يَنْظُرَ فِيهِ حَتَّى يَسِيرَ يَوْمَيْنِ ثُمَّ يَنْظُرَ فِيهِ، فَيَمْضِيَ لِمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَلا يَسْتَكْرِهَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا.... فَلَمَّا سَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ، فَنَظَرَ فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ: «**إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشًا وَتَعَلَّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ**»... وَمَضَى ... حَتَّى نَزَلَ بِنَخْلَةَ، فَمَرَّتْ بِهِ عِيرٌ لِقُرَيْشٍ تَحْمِلُ زَبِيبًا وَأَدَمًا، وَتِجَارَةً مِنْ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ، فِيهَا عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ.. فَلَمَّا رَآهُمُ الْقَوْمُ هَابُوهُمْ وَقَدْ نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهُمْ، فَأَشْرَفَ لَهُمْ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ، وَكَانَ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ أَمِنُوا، وَقَالُوا عُمَّارٌ: لا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ.

وَتَشَاوَرَ الْقَوْمُ فِيهِمْ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ، فَقَالَ الْقَوْمُ: وَاللَّهِ لَئِنْ تَرَكْتُمُ الْقَوْمَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَيَدْخُلُنَّ الْحَرَمَ، فَلَيَمْتَنِعُنَّ مِنْكُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ لَتَقْتُلُنَّهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؛ فَتَرَدَّدَ الْقَوْمُ، وَهَابُوا الإِقْدَامَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ شَجَّعُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِ مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَأَخْذِ مَا مَعَهُمْ... فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَاسْتَأْسَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ... فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، قَالَ: «**مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ**»...

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُقِطَ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا صَنَعُوا. وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدِ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَسَفَكُوا فِيهِ الدَّمَ، وَأَخَذُوا فِيهِ الأَمْوَالَ، وَأَسَرُوا فِيهِ الرِّجَالَ...

فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (السيرة النبوية لابن هشام).

هذا الحدث مدعاة للتأمل والتفكير والنظر؛ لأنه يمثل تميز منهج النبوة وكيفية تعامله مع الواقع، بعيداً عن التستر على الخطأ والإنكار للحقائق، فلقد اعترف الرسول ﷺ بالخطأ، ودفع الدية، ولكنه حاول مقارنة هذا الخطأ الكبير، ومقارنته مع ما يقع فيه المشركون من أخطأ الصد عن المسجد الحرام، وإخراج أهله منه، وإكراه الناس وفتنتهم عن الدخول في الإسلام، بحيث تم الاعتراف بالخطأ من جانب، وعدم التستر، والاستفادة من الخطأ للمقارنة مع فعل المشركين: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

فهل يعيش المسلمون اليوم هذا الإرث النبوي العظيم، وبخاصة الذين يرفعون شعارات إسلامية ولم يُؤثر عنهم الاعتراف بخطأ واحد، والأمور تسير من سيء إلى أسوأ، حتى أصبحوا محل تهمة القريب والبعيد، بذريعة أن الاعتراف يُضعف القوة ويخلخل الصفوف ويُبصّر العدو بمواطن الضعف؟

ومن سمات منهج النبوة: بناء المشترك الإنساني، والتعاون على إشاعة قيم الحق والعدل والخير والنفع العام، والتحالف على ذلك مع (الآخر)؛ ولسنا بحاجة إلى التذكير بالتحالف أثناء حصار شِعب أبي طالب، حيث استُفيد فيه من كل الروابط والقرابات القبلية والقومية....إلخ؛ والتذكير بحلف الفضول عندما تعاهد

أشراف مكة على نصرة المظلوم، وأن لا يبقى في مكة مظلوماً إلا وترد له ظلامته، وقولة الرسول ﷺ: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا لَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ، تَحَالَفُوا أَنْ يَرُدُّوا الْفُضُولَ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَلاَّ يَعُزَّ ظَالِمٌ مَظْلُومًا**» (ابن كثير، البداية والنهاية)؛ والثناء على ملك الحبشة، حيث أرض الصدق، التي فيها ملك لا يظلم الناس عنده، ودعوة المسلمين المظلومين للهجرة الأولى إلى الحبشة...

أما نحن اليوم فنمارس احتكار الخير، واحتكار الفهم، والانكفاء على (الذات)، والتذرع بفلسفات مأزومة، أو هي ثمرة لفكر أزمة أدت إلى أزمة فكر، نمارس العزلة الشعورية والعزلة العملية وإخراج الآخرين من ساحة الإيمان، وهم من المسلمين (!)، وتجريدهم من كل خير، الأمر الذي أدى، مقابل الانكفاء على (الذات) إلى الارتماء على (الآخر).

وقد لا نكون بحاجة إلى التذكير بالميثاق الوطني والسياسي مع مكونات المجتمع جميعها، من يهود ومشركين وقبائل، في وثيقة المدينة، فأين أمثال تلك المواثيق الجامعة للمواطنة من واقع الطوأفة والتمزق والبعثرة والتحزب، التي يعيشها المسلمون، حتى فيما بينهم؟ أين ذلك من منهج النبوة؟!

ومن سمات منهج النبوة: اعتماد الشورى في جميع شؤون الحياة، في السلم والحرب والسياسة والإدارة، وحتى في الشأن الخاص، استجابة لقوله تعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩)، وقوله تعالى في صفة مجتمع المسلمين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:٣٨)، علماً بأن

الرسول ﷺ مستغن بالوحي عن الشورى، لكن الرسول ﷺ ليس باقياً على قيد الحياة، والوحي ليست مستمراً، فلابد من تأسيس وتأصيل المبدأ ليكون محور حياة المسلمين.. ولا يتسع المجال للإتيان على نماذج من تطبيقات الشورى في حياة الرسول ﷺ وخير القرون، فهو معلوم في مظانّه في كتب السيرة، ومسموع من على المنابر وفي دروس الوعظ والإرشاد والمحاضرات والمؤتمرات الإسلامية، وإن كان نصيبه من واقع المسلمين، حتى الداعين إليه، محزناً، وحسبنا أن شعار الرسول ﷺ الدائم: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ».

وقد جاء الحض على الشورى واقترانها بالصلاة في كتاب الله بعد معركة أُحد، التي كانت الشورى، بحسب الظاهر، السبب في الهزيمة؛ لأن الرسول ﷺ ما كان يريد الخروج لملاقاة العدو، فلما كانت الشورى تطالب بالخروج خرج، فكان ما كان.. والغريب اليوم حرص المسلمين على الصلاة وزهدهم في الشورى (!)

فهل نمارس الشورى في بيوتنا ومدارسنا وأنديتنا ومجتمعاتنا ومؤسساتنا وتنظيماتنا الإسلامية حقاً، ونتعبد الله بممارساتها كما نتعبده بالصلاة، وقد جاءت بنفس السياق قرينة للصلاة، أم أن الشورى مادة وعظ وإرشاد وتفاخر ومحاضرة وتأليف؟ والذي يشيع في ثقافتنا الاستغناء بالجدل حول مفهوم الشورى، وهل هي مُلزمة أو مُعلمة، عن ممارستها، أو القيام بمقارنات بين الشورى والديموقراطية، والتوفيق تارة والتلفيق أخرى، دون أن نعيشها في مؤسساتنا وتنظيماتنا الإسلامية الرائدة.

ومن الأشياء المحزنة حقاً أن تقوم بعض المؤسسات الإسلامية العالمية بالدعوة لانتخاب رئيس لها، ويجتمع الأعضاء، ومن ثمّ يفاجأون بإعلان الفوز، بالإجماع، أو بالتزكية، دون أن يمارسوا انتخاباً! ولسنا بذلك بأحسن حالاً من الحال فيما وراء ذلك في مؤسسات الحكم والإدارة، التي هي محل انتقادنا!

وليس ذلك فقط، فإذا مورست الشورى فإن جاءت نتيجتها لصالحنا فهي مُلزمة، وإذا لم تحقق رغبتنا فهي مُعلمة!

فأين نحن من منهج النبوة؟ وكيف لنا الإصلاح والارتقاء ونحن نعاني من علل التخلف والعجز، الأمر الذي يجعلنا جزءاً من المشكلة وليس وسيلة للحل والإصلاح، ومع ذلك نشكو من الفشل، ومن تكراره، وعدم بلوغ النصر الموعود والنجاح المشهود، ونبخل على أنفسنا ولو بمراجعات بين الحين والآخر لاختبار صحة وجهتنا وسلامة خطونا، والتعرف على الخير لفعله، والشر حتى لا يدركنا، والخلل حتى نعالجه، وأخطائنا حتى لا نكررها.

ومن سمات منهج النبوة في الدعوة والإصلاح: فقه الواقع، الذي عليه الناس، والتحقق بالرؤية الشاملة للظروف والملابسات، وإبصار التداعيات المستقبلية لكل فعل وحركة، وتقدير الاستطاعة، مناط التكليف، قبل تقرير الأحكام وممارسة الأفعال.

ولعل في أسباب نزول الآيات، التي تشكل دليل عمل لتنزيل آيات القرآن وفق ظروف الناس، وتقديم الحلول لمشكلاتهم، مؤشر واضح على أهمية

فقه الواقع، بكل ظروفه وملابساته، قبل تنزيل قيم الوحي عليه.. وهذا منهج النبوة وعطاؤها.

فالرسول ﷺ -كما نعلم- عدل عن هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم، عليه السلام، خوفاً من فتنة حديثي العهد بالإسلام، «أَخْبَرَ عَبْد اللَّهِ بْن عُمَرَ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِي اللَّه عَنْهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهَا: **أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوُا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ.. فَقُلْتُ:** يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: **لَوْلا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ**» (أخرجه البخاري)، وفي رواية لمسلم: «**لَنَقَضْتُ الْبَيْتَ حَتَّى أَزِيدَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ**».

هذا الفقه النبوي، وهذا المنهج النبوي الغائب عن كثير من مسالكنا وعلاقاتنا وتعاملنا وتديننا... متى نعود إليه بمراجعات شاملة لواقعنا وثقافتنا وفهمنا وفقهنا؟

وجانب آخر، فإن منهج النبوة يستدعي الكثير من التفكير والتدبر والتأمل والتريث، قبل اتخاذ القرارات الصعبة في الإصلاح والتغيير والمواجهة، فلقد مُنع المسلمون من مقاتلة الكفار والمشركين، ودخول مكة قتالاً، بعد أن أظفر الله المسلمين عليهم، رغم عدوانهم وظلمهم وكل كيودهم؛ لكون مكة مجتمعاً مختلطاً، فيه المؤمن والكافر، البريء والمجرم، الظالم والمظلوم، خشية من إراقة الدماء المؤمنة البريئة أثناء محاربة الظلم

والمشـركين، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ (الفتح: ٢٤-٢٥).

نعاود القول: إن التدرج في النبوات، وتفرد كل نبوة ورسالة بمرحلة زمنية معينة من عمر البشرية، ومعالجتها للإصابات الواقعة، ودعوتها للوقاية من الإصابات المتوقعة، تحضيراً للإنسان لبلوغ مرحلة الرشد والتأهل للرسالة الخاتمة، التي احتوت قصص النبوة، واجتمعت لها أصول الرسالات، وتحقق لنبيها صفات وخصائص الأنبياء، فكان الكمال وكان الاكتمال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، يمكن أن يُشكل فقهاً ونوافذ لكيفية تنزيل القرآن على واقع الناس، ذلك أن أصول الرسالات جميعاً وأحوال أقوامها وإصاباتهم ما تزال ممتدة، بأقدار متفاوتة، في الرسالة الخاتمة.

فكيف نفيد من ذلك، ونبدأ بالتعامل من الحال، التي عليها الناس، ونأخذ بأيديهم للترقي والارتقاء حسب حالاتهم واستطاعاتهم لبلوغ حالة الكمال والاكتمال، حيث أقدار التدين لا تقف عند حالة الكمال والاكتمال وإنما هي بارتفاع وانخفاض، وقوة وضعف، وانتصار وهزيمة، وهذا يتطلب العلاجات المناسبة للعلل والأمراض الواقعة والمتوقعة؟

أما تنزيل آيات النصر على واقع الهزيمة، وآيات معالجة الهزيمة على واقع النصر، والدعوة إلى القتال حتى لا تكون فتنة، ونحن لا نستطيع أن ندفع الفتنة عن أنفسنا، فذلك فقه عليلٌ وعقلٌ كليل، والله حسبنا ونعم الوكيل!

وقد تكون الإشكالية في التعامل مع منهج النبوة، من خلال أبجديات ثقافة (المُلك) من قبل بعض الجماعات والأحزاب والتنظيمات الإسلامية، أو ما يطلق عليه ظلماً (جماعات الإسلام السياسي)، مع التحفظ الكبير على هذا التقطيع للإسلام، وتقسيمه إلى إسلام سياسي وإسلام غير سياسي، فالإسلام هو الإسلام، يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ (الحجر:٩٠-٩١)، فجعلوا المحور الأساس هو المغالبة السياسية، وحشدوا لذلك الكثير من المفهومات والأفكار، والتأويل لبعض الآيات والأحاديث لتوافق هواهم وخيارهم، وأصبحت هذه المفاهيم هي الشائعة وكأن اسم الإسلام وفقهه تحول ليصبح حكراً عليهم وعلى ممارساتهم، دون أن يمتلكوا أدوات ذلك وتخصصاته! كما أن معرفة الإسلام تتم من خلالهم!

ونحن هنا لا نقلل من أهمية السلطان للقرآن، والقوة للحق، لكن الذي نقول: إن للنبوة منهجها ووسائلها، وللمُلك والسلطان السياسي منهجه ووسائله أيضاً.. ولعل فيما دار بين العباس ﷺ وبين أبي سفيان، قبل أن يُسلم، عند فتح مكة، ومشاهدة أبي سفيان لإيمان وتصميم وشجاعة كتائب الفتح، دلالة واضحة على الفرق بين منهج النبوة ومناهج المُلك والسلطة السياسية، حيث قال أبو سفيان: «وَاللَّهِ، يَا أَبَا الْفَضْلِ، لَقَدْ أَصْبَحَ

مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا»، فقال العباس: «إِنَّهَا النُّبُوَّةُ».. وليس المُلك (انظر السيرة النبوية لابن هشام).

فمتى نقوم بمراجعات، ونقرأ واقعنا بأبجدية منهج النبوة، لا نقرأه بأبجدية المُلك والمغالبة السياسية؟ ومتى ننظر في مطابقة مسالكنا لمنهج النبوة، ونحسن اختيار موقع الاقتداء من مسيرة النبوة، ونحسن تنزيل آيات القرآن على واقعنا، بحسب استطاعاتنا، ونبصر حدود حركتنا وجهادنا، ونعي قولة عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، عندما عاب بعضهم عليه عدم الخروج للقتال، درءاً للفتنة، فكان جوابه: «قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ»، حيث ما يزال نفق الفتن المظلم ممتداً حتى اليوم، يستخف كثيراً من الناس؟

وبعد؛

فهذا الكتاب يعتبر محاولة لفتح ملف أحد أعلام التجديد والإصلاح، وعرض منهجه في رسائله، وأسلوبه في المناصحة، والاضطلاع بمسؤولية حمل العلم ونفي نوابت السوء، والعودة بالأمة المسلمة إلى استئناف دورها الرسالي في العالم.

وتأتي أهمية دراسة حركات التجديد والإصلاح وسير الأعلام العاملين في المجالات المتعددة، واستصحاب تجاربهم، والإفادة من عطائهم؛ لأنها تساهم بإنارة الطريق والإجابة عن سؤال النهضة ومعاودة إخراج الأمة، كما أنها

تساهم بتسديد المسيرة وتحقيق الاعتبار وتجنب العثار، ذلك أن تاريخنا الحقيقي هو التاريخ العلمي والثقافي والفقهي، وسير العلماء العدول، وليس التاريخ السياسي، على كل حال، حيث انفصل السلطان عن القرآن، في وقت مبكر، وكان الحكم أول ما نُقض من عرى الإسلام، فانحازت الأمة إلى القرآن، وشكّل العلماء والمصلحون رموزها وقادتها، فامتد أثرهم، وغاب الحكام الظلمة والجهلة من حياة الناس وحضارتهم دون ذكر لهم.

فالتاريخ الحقيقي هو تاريخ المصلحين وحركات الإصلاح.. واستنقاذ الناس من الضلال والتخلف، وإلحاق الرحمة بهم هو المسؤولية والأمانة المنوطة بهم، مهما كانت التضحيات، شعارهم: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾(هود:٨٨)، وعدّتهم التجرد والاحتساب: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾(يونس: ٧٢).

والإصلاح في منهج النبوة غير الانقلاب والتغيير، فالإصلاح ينصب على تحديد أماكن الإصابة، ودراسة أسباب ذلك، ومعالجة مواطن الخلل، بالعلم والحكمة والموعظة الحسنة، والتزام المنهج السنني، والتدرج في التكاليف، بحسب الاستطاعة، بعيداً عن العنف والإكراه والمواجهة، فالعنف والمواجهة لم تأت بخير على مدى التاريخ الطويل.

فالمسلم الحق يهمه انتصار الحق، ولا يهمه حظ نفسه، ويدور معه حيث دار، بعيداً عن التعصب والحزبية وبخس الناس أشياءهم، ومحاولة التعاون معهم على الخير وبناء المشترك.

وقد تكون الإشكالية في دراسة أعلام الإصلاح وحركات التجديد والتغيير، في واقعنا الثقافي، أن قوامها المديح والتقريظ وتفخيم (الذات) وحشد الألقاب، تحت شعار: «اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ»، بعيداً عن التقويم والمراجعة وبيان السقطات والأخطاء، الأمر الذي يحقق الاعتبار ويفتح الأبصار، حتى لا تتكرر الفواجع وتتوطن الإصابات ويستمر الحال وتهدر الجهود في دراسات لا تتقدم بالأمة ولو خطوة واحدة.

لذلك نقول: لقد أصبح من الضروري بل من الأهمية بمكان إعادة النظر بمنهج دراسة حركات وأعلام التجديد والإصلاح حتى نتمكن من الإفادة من تجاربهم ونتجنب عثارهم وأخطاءهم، فـ «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ**»، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد، مع الأخذ بعين الاعتبار أن لأعلام وحركات التجديد ظروفها وزمانها ومشكلاتها وسياقها التاريخي، لذلك لا بد أن نعرف كيف نستفيد منها، بعيداً عن التمترس حولها، ومحاكاة وسائلها، والتوقف عند اجتهادها وفكرها، بالرغم من تغير الظروف والمشكلات والمجتمعات، وهذا لا يضير حركات التجديد وأعلام الإصلاح وإنما يضر بالحاضر العاجز عن الإفادة منهم، والاقتصار على الدوران ضمن فكرهم، وعدم القدرة على استصحابهم، لتوليد أفكار ورؤى تفقه الحاضر وتُبصِر المستقبل وتُحسن التعامل مع الناس.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مقدمة

أ.د. محمد رجب البيومي (رحمه الله)

إن شيخنا العلامة الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ذو ميادين واسعة في التأليف العلمي، فقد ألف في التاريخ الإسلامي، والتشريع الفقهي، والإصلاح الديني، والنقد الأدبي كتبًا رائعة تنطق بفضله الكبير.

ومن بين كتبه القيمة الممتازة: «كتاب رسائل الإصلاح»، في ثلاثة أجزاء، وقد شاء الأستاذ الدكتور المرسي محمود إبراهيم شولح أن يخص الجزء الأول بتحليل كاشف يبين جوهر الإصلاح في فكر الإمام، فتعمق في هذا الجزء تعمقاً علمياً ممتازاً، وكأنه وقف على كل سطر من سطوره ليكشف ما يستتر وراء الكلمات، بل وراء الحروف. مع ربط المعاني العامة في كل مقال بمثيلاتها في المقالات المتابعة، وبذلك أدى للقارئ نفعًا جزيلاً حين رسم له طريقة التحليل العلمي للمقالات العلمية والاجتماعية. وهي

طريقة عسيرة التحقيق على وجهها الصحيح إلا لدى من يعكفون على الآثار العلمية عكوفاً؛ ليخرجوا ما تحوي من الإشارات البعيدة قبل أن يتحدثوا عن العناصر الواضحة.

وقد كان أسلوب الخضر في حاجة إلى محلل يقف من بحره العميق وقوف الغائص الباحث عن الدر في القاع، وكان ذلك كله كسبًا للقارئ من ناحية، وللفكرة الإصلاحية من ناحية ثانية، ونرجو أن يتابع الأستاذ جهوده الكريمة في هذا الميدان فيحلل الآثار العلمية لكبار العلماء على هذا النحو المستوعب المختار، فهو بذلك يحيي المعاني العلمية، كما يحيي سير هؤلاء، الذين حملوا أمانة العلم في إخلاص، فأخرجوا القارئ من ظلمات الحيرة إلى نور اليقين، وإني لأحييه تحية خالصة راجيًا أن تكون هذه الصفحات مصدر إعجاب للقارئ ونظر للدارس وموضع قبول ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

والله ولي التوفيق.

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الإصلاح رسالة شريفة حملها على مر التاريخ الإنساني الرجال الصادقون والعلماء الربانيون، وقد خرّجت الأمة الإسلامية مصلحين كانوا على مستوى الإسلام علماً وعملاً، فهماً وتطبيقاً، فبلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وجاهدوا في الله حتى أتاهم اليقين، وكانوا على خطى النبوة يتبعون هديها، ويلتزمون نهجها، ويقتفون أثرها.

فقاموا بالإصلاح من خلال إحياء القيم الإسلامية، وتجديد العمل بالتعاليم القرآنية والنبوية، وتنقية المفاهيم مما علق بها من شوائب، وقاموا بدفع المفتريات، ورد الشبهات، وتربية الجيل المسلم على هدى الإسلام.. فأدوا بهذه المهمة الإصلاحية خدمة عظيمة للمجتمعات الإسلامية، حيث أعادوا لها شخصيتها المسلوبة، وكرامتها المفقودة، وشكلت رؤاهم الفكرية ومواقفهم الإصلاحية معالم المجتمع المسلم.

وقد بقيت جهود المصلحين، ولم تسقط من ذاكرة التاريخ، فقد حفظ الزمان آثارهم، وتعاقبت الأجيال على دراسة سيرتهم

وأفكارهم، وبقيت بصماتهم الفكرية واضحة على القلب والعقل المسلم في كل وقت.

ومن هؤلاء المصلحين العظام والمربين الكرام، فضيلة الإمام محمد الخضر حسين، رحمه الله، الرجل الذي عاش حياة المصلحين، وسار على درب الأنبياء والمرسلين، فأخذ الإصلاح رسالة، عاش من أجلها، وجاهد في سبيلها، ومن أنواع جهاده العلمي تأليف «رسائل الإصلاح»، التي دلت على طبيعة الشخصية الإصلاحية للإمام، رحمه الله، والتي يتأصل – من خلال ما جاء فيها من رؤى فكرية، وأسس إصلاحية، وأفكار ثرية ومتميزة في تجديد الفكر الإسلامي، انطلاقاً من الثوابت والركائز، أن العالم الحق هو الذي ارتقى علمه إلى المستوى الإصلاحي المنشود، وذلك من خلال التطابق بين العمل الكتابي والعمل الإصلاحي، وذلك بأن تكون حياة الكاتب وفق كتاباته، وأن تكون سيرته على مستوى أفكاره، وأن يسير خط علمه وفكره ومداده مع خط حياته العملية في إطار متساو، فتبني الكاتب كلماته، وتشكل ملامحه الإصلاحية ما خطه بيده من رؤى فكرية.

والعالم الحق هو صاحب المواقف التي تنهض بها الأمة، وتبقى محفوظة في ذاكرتها على مر تاريخها، وتظل زاداً لها في كل وقت تقوى به من ضعف، وتنتصر به من هزيمة، وترقى به من هبوط، والعالم الحق هو صاحب الرسالات الموجهة لفئات الأمة، وطبقاتها والمسؤولين عنها، والقائمين على

شـؤونها، حيـث يعـزز مـن الإيجابيـات ويشــيد بهـا، ويحـذر مـن السـلبيات ويذكر مخاطرها.

فالإصـلاح عملية كبيرة، تحتاج إلى أصـحاب جمع بين الفـكر السليم والعمـل الصـحيح، وبين التصـور الواضـح لمشـكلات الأمة والخطط المحكمة لإخراجها من أزماتها.

والعـبرة في الكتابـات الإسـلامية في مـا تحويه المؤلفـات والكتابـات مـن رسالة تربوية موجهة للأمـة، وذلك بأن يكون العالم مربياً بعلمه، وصـاحب رسالة في كلمته، وهذا ما كان متحققاً في كثيرين منهم الإمام، رحمه الله.

ولقد كان تكليفي[1] من اللجنة العلمية لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر بموضوع: «رسائل الإصلاح – الجزء الأول – دراسة تحليلية لفضيلة الإمام محمد الخضر حسين» عمـلاً مباركاً عليَّ بفضل الله تعالى لأسهم في إبراز جانـب مهـم مـن كتابـات الإمـام، رحمـه الله، وأشـارك في توضيح جهـوده الإصـلاحية في رسـائله مـن خـلال تحـليلها، وكشــف محاورهـا الفكريـة، وهذا ما اجتهدت فيه في هذا الموضوع.

والله ولي التوفيق.

---

(١) هذا الكتاب في أصله بحث علمي مرجعي قدم للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر، للترقية إلى درجة أستاذ مساعد (مشارك)، وقد أضيفت مادة علمية جديدة إلى أصل الكتاب، وتم تعديل خطته، وزيدت فصوله عن الصورة المقدم بها للجنة.

تمهيد

يشتمل التمهيد على النقاط التالية:

- تعريف الرسائل.
- المفهوم الإسلامي للإصلاح.
- علاقة الإصلاح بالدعوة.
- اختيار عنوان رسائل الإصلاح.
- رسائل الإصلاح تقسيماً.
- تقسيم رسائل الإصلاح، الجزء الأول.

- تعريف الرسائل:

في لسان العرب: «وجمع الرسالة الرسائل.. والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليه، والاسم الرّسالة، والرَّسالة»[1].

وفي المعجم الوجيز: الرسالة: ما يرسل، و: الخطاب المرسل إلى فرد أو جماعة. وكتاب يشتمل على قليل من المسائل وتكون في موضوع واحد»[2].

وفي التعريفات: «الرسالة هي المجلة المشتملة على قليل من المسائل التي تكون من نوع واحد، يكون فيها الحكم»[3].

فمكونات الرسالة، من خلال ما سبق، ما يلي:

- مرسل: ويتمتع بمواصفات خاصة، وإمكانات عقلية وعلمية متميزة، ويحظى بالمكانة والمنزلة من خلال تاريخه المشرف المتلئ بالمواقف والإنجازات.

- مضمون الرسالة: ومضمون الرسالة تلك المقالات المستوعبة موضوعات الإسلام في جوانبه العقدية، والعبادية، والتشريعية، والتربوية، والأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية وغيرها من الجوانب التي تشمل رسالة الإسلام الهادفة.

---

(١) محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، ط١ (بيروت: دار صادر) ٢٨١/١١.

(٢) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٦٣.

(٣) علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات (دار الريان للتراث، بدون) ص١٤٧.

وتلك المضامين في حقيقتها تستمد أصولها من خطاب الدعوة المعصوم، وخطاب الدعوة البشري الذي يعالج المشكلات ويتصدى للتحديات في كل فترات التاريخ المختلفة.

وفي «رسائل الإصلاح» للإمام محمد الخضر حسين هذه المضامين، حيث قام، رحمه الله، بجمعها في كتابه، وتضمينها في رسالته.

- اعتبارات الرسالة:

الرسالة لها مجموعة من الاعتبارات تتمثل فيما يلي:

- **اعتبار الزمان والمكان:** فلكل زمان بيان، ولكل مكان أسلوب، ولكل حدث حديث، ولكل مقام مقال، والرسالة تراعي طبيعة الزمان والمكان لمضامينها الإنسانية ومحتوياتها الدعوية.

- **اعتبار الحدث نفسه:** حيث يفرض أسلوباً معيناً في التعامل معه وطريقة في الرسالة تتناسب مع حقيقة الحدث وطبيعته.

- **اعتبار المرسل إليهم من الناس:** وذلك على حسب استيعابهم، وعلى مستوى ثقافتهم. فمراعاة الخطاب حال الناس من عوامل نجاحه.

- الربط بين الرسالة والإصلاح:

اشتملت رسائل الإصلاح على مسائل ومقالات في موضوع الإسلام، توجه بها فضيلة الإمام إلى جماعة المسلمين في كل زمان ومكان؛ ولذلك كان الربط بين مضمون الرسالة وتحقيق الإصلاح.

ففي المعجم الوجيز: «رسالة المصلح: ما يتوخاه من وجوه الإصلاح»[1].

فما توخاه فضيلة الإمام من وجوه الإصلاح ضمنه هذه الرسائل.

فالرسائل المقصود بها: الإطار النظري للإصلاح والذي اجتهد فيه الإمام، رحمه الله، لوضع الأسس والقواعد، التي ينطلق المسلمون منها لتحقيق الإصلاح، ووضع الضوابط التي تحفظ المسيرة، وتدعم الخطى في طريق النهضة العامة للفرد والمجتمع.

- المفهوم الإسلامي للإصلاح:

في لسان العرب: «الإصلاح: نقيض الفساد[2] وصَلُح - صلاحاً»: زال عنه الفساد، و«أصلح الشيء: أزال فساده»[3].

وفي معجم مفردات ألفاظ القرآن: «الصلاح ضد الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ (التوبة:١٠٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾»[4] (الأعراف:٥٦ وآية٨٥).

---

(١) المعجم الوجيز، ص٢٦٣.

(٢) لسان العرب، ٥١٦/٢.

(٣) المعجم الوجيز، ص ٣٦٨.

(٤) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ط ١ (دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ) ص٣١٨.

والإصلاح في المفهوم الإسلامي هو: «محاولة رد الاعتبار للقيم الدينية، وتوضيح ما أثير حولها من شبه وشكوك.. ومحاولة السير بالمبادئ الإسلامية من نقطة الركود، التي وقفت عندها في حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر..»[1].

وهو: «محاولة تجديد واقع الأمة الإسلامية، والانتقال بها من وضعها المرضي إلى وضع تكون فيه أفضل حالاً من حيث صحة العقيدة، وسلامة الأخلاق وفعالية الأداء»[2].

فالإصلاح الأصيل ينطلق من المصادر الإسلامية، ويسير في خطين متوازيين:

- **الخط الأول**: تنقية المفاهيم الإسلامية مما علق بها، وإزالة الشوائب عنها، وتصفيتها من الكدر الذي علق بها.

- **الخط الثاني**: تربية المسلمين على هذه المفاهيم الأصيلة ليعودوا بها إلى الحياة من جديد، موجهين وقادة، وليستردوا بهذه التربية على المفاهيم الأصيلة الشخصية الإسلامية المتكاملة، والمناهج الإسلامية الموضوعة لصالح الحياة.

وقد جرى الإمام، رحمه الله، على هذا المفهوم، وأخضع له مقالاته، وصاغ له عباراته، وأوقف عليه أفكاره ومداده.

---

(١) محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي (مطبعة أحمد علي مخيمر، بدون) ص٣٢، ص٣٧٣.

(٢) محمد زرمان، فلسفة التجديد الإسلامي (نموذج البشير الإبراهيمي)، ط/١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٣٢.

- علاقة الإصلاح بالدعوة:

الدعوة هي: «قيام من عنده أهلية النصح الرشيد والتوجيه السديد من المسلمين في كل زمان ومكان بترغيب الناس في الإسلام، اعتقادًا ومنهجًا، وتحذيرهم من غيره بطرق مخصوصة»[1].

والإصلاح والدعوة بينهما علاقة وثيقة تصل إلى حد التشابك، الذي يصعب معه الفصل، ويجمع بينهما أن الإصلاح توجيه للناس، والدعوة كذلك، فكلاهما يشترك في توجيه الناس وتنبيههم إلى ما يصلحهم في معادهم ومعاشهم.

لكن المصطلح الأوسع دائرة، والأكثر شمولاً هو مصطلح الدعوة، ولهذا كان المصطلح الذي جاء في كتاب الله تعالى دالاً على التوجيه والإرشاد، ففي القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣)، ويقول تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:١٠٨)، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب:٤٥).

وقال النبي ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»[2].

---

(١) أبو المجد السيد نوفل، الدعوة إلى الله تعالى: خصائصها، مقوماتها، مناهجها (دراسة مقارنه)، ط٢، بدون.

(٢) مسلم، ح٦٢، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة.

فالدعوة هي طريقة الإصلاح المناسبة، وهي التي تتولى طريقة الإصلاح وتجلي معالمها، وتحدد ملامحها.

فإذا كان الإصلاح يُعنى بالعقيدة، أو بالعبادة، أو التشريع، فإن الدعوة هي التي تحدد طريقة الإصلاح العقدي، أو العبادي، أو التشريعي، فالدعوة والإصلاح من السعة بمكان، ومن الشمول بمكان، وفي إطار الشمول في كل منهما تأخذ الدعوة إطاراً أشمل ودائرة أوسع من الإصلاح.

- اختيار عنوان رسائل الإصلاح:

رسائل الإصلاح يرجع أمر اختيارها كعنوان إلى استجابة الإمام، رحمه الله، لاقتراح طرح عليه من بعض أهل العلم، فهو يقول:

«فقد جرى القلم بتحرير مقالات في أغراض شتى، فاقترح علي بعض أهل العلم أن أجمعها في سفر أو أسفار، حتى يسهل تناولها وتكون طوع يد من يريد مطالعتها، فحل هذا الاقتراح من النفس محل القبول، وأخذت أجمعها، وأعيد النظر في بعض عباراتها.... ووضع لها اسماً وهو رسائل الإصلاح»[1].

وقد وفق الإمام، رحمه الله، لهذا العنوان المعبر تماماً عن مضمونه، والمجلي بوضوح حقيقة ما تحته، ورجوع الإمام، رحمه الله، إلى غيره فيما كتب دلالة

---

(١) محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح (السعودية: دار الإصلاح، بدون) ١/٧.

على تواضعه الجم، وإفادته الكاملة من كل رأي يطرح عليه، ومن كل اقتراح يُسدى إليه.

وفي الرجوع دلالة أيضاً على العلاقة الطيبة بين الإمام، رحمه الله، وبين أهل العلم الذين أسدوا إليه جميلاً، وصنعوا له معروفاً في الإشارة عليه بجمع مقالاته، مما كان له الأثر الطيب في حفظ هذه المقالات وإفادة الأجيال المختلفة مما كتب فيها.

ولولا هذا لضاع علم كبير على الأمة، وافتقد صاحبه خيراً عظيماً بسبب عزلته عن أهل العلم في عصره، وعدم اعتنائه بمد جسور التعاون معهم، من أجل التلاقح في الآراء والأفكار، والإفادة من المشورة، والأخذ بالنصيحة، فكم في الخلطة الشرعية بين العلماء من خيرات وبركات، وكم في العزلة بين العلماء من شؤم وضرر.

وينبغي أن يكون أهل العلم فيما بينهم على أكمل ما تكون العلاقة، التي ينعكس خيرها، ويتجاوز فضلها، وتتعدى بركتها للأمة كلها في كل زمان ومكان.

- رسائل الإصلاح تقسيماً:

تقع «رسائل الإصلاح» في ثلاثة أجزاء[1] وقد، نشرت هذه الرسائل دار الإصلاح بالسعودية، كما نشرت بمجلة الأزهر، ضمن الهدية المجانية،

---

(١) طبعت الجزء الأول والثاني دار الإصلاح بالسعودية، ولعلها طبعت الجزء الثالث أيضاً، لكني لم أجده، وقد رأيت الجزء الثالث بهذا الشكل: تم طبع الجزء الثالث من رسائل الإصلاح في مطبعة القدس ومطبعة السعادة، رسائل الإصلاح، ٣/١٦٠، عنيت بنشره مكتبة القدس سنة ١٣٥٨هـ، سنة١٩٣٩م.

مختارات من تراث الإمام، سنة ١٤٢٢هـ، وضمنت الجزء الأول مختارات من الجزء الأول من «رسائل الإصلاح»، بدأته بالتعريف للإمام نقلاً عن مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن للشيخ علي عبد العظيم.

ويقع الجزء الأول من «رسائل الإصلاح» على حسب ما نشرته دار الإصلاح في أربع وستين ومائتين صفحة من الحجم الكبير، ولم يذكر الناشر رقم الطبعة ولا تاريخ طبعها.

- تقسيم رسائل الإصلاح، الجزء الأول:

ذكر الإمام، رحمه الله، التقسيم العام لرسائل الإصلاح، فقال: «قسمتها إلى أربعة أقسام:

- الأخلاق والاجتماعيات.
- قسم المباحث الدينية، من أصول الدين وأصول الفقه والأحكام العملية.
- قسم السيرة النبوية، وتراجم الرجال والبحوث التاريخية.
- قسم مباحث اللغة وصناعة الأدب.

ومحل الدراسة هو القسم الأول المتمثل في الأخلاق والاجتماعيات، وشمل الجزء الأول الموضوعات التالية، وترتيبها على حسب مجيئها في الجزء الأول مع ذكر صفحات كل مقالة بداية ونهاية كما يلي:

ومن الملاحظات على هذه الموضوعات ما يلي:

- إنها بدأت بموضوع الإخلاص، وهو الموضوع الذي يحرص العلماء قديماً وحديثاً على البداية به، حيث إنه أساس الإسلام، وأصل سلامة الأعمال.

- تناولت الموضوعات الأخلاق في جميع العلاقات، حيث تناولت الأخلاق في علاقة الإنسان بنفسه كقوة الإرادة، وفي علاقة الإنسان بغيره من المسلمين كالتعاون، وفي علاقة الإنسان بغيره من غير المسلمين كالسماحة، وفي علاقة الإنسان بالحيوان كالرفق بالحيوان، فجاءت الأخلاق شاملة كل العلاقات، وهذا من ركائز الإصلاح، قيامه على إصلاح جميع العلاقات والنهضة بكل المسارات.

- نال موضوع العلم أكثر من معالجة في أكثر من زاوية، فكانت مقالات الأمانة في العلم - التعليم الديني في مدارس الحكومة - الإنصاف الأدبي - العلماء والإصلاح - كبر الهمة في العلم - النبوغ في العلوم والفنون - العلماء وأولو الأمر، وهذا الاهتمام بموضوع العلم من أكثر من زاوية من الإمام لاعتباره أن العلم في مشروعه الإصلاحي ركيزة كبرى، ومعلم أساسي من معالم الإصلاح.

- الموضوعات تناولت أهمية معرفة الشر، والتعريف بمصادر الأخلاق الفاسدة، فكان موضوع الانحراف عن الدين، علله، وآثاره،

ودواؤه، وضلالة فصل الدين عن السياسة، والإلحاد، وأديان العرب قبل الإسلام.

والاهتمام بالأخلاق الفاسدة ومصادرها ركيزة من ركائز الدعوة، فمن طرق تثبيت الأخلاق الحسنة تعرية الشر وكشفه للمجتمع.

- الموضوعات تناولت الأخلاق من خلال الجمع بينها كما هو في موضوع الدهاء والاستقامة، والعزة والتواضع، والمداراة والمداهنة، والاجتماع والعزلة، فإن هناك فروقاً دقيقة بين الأخلاق تحتاج إلى تجليتها كي لا يحدث الالتباس بين الأخلاق وبعضها، وهذا له مردوده على توظيف الخلق التوظيف الأمثل، ووضعه في حده، وعدم استعماله في غير موضعه، وبهذا يكون للخلق الأثر في النهضة الكبرى والإصلاح الشامل.

- شملت الأخلاق جميع الجهات التي يقع على كاهلها عبء الإصلاح، فجبهة الحكام في موضوع ضلالة فصل الدين عن السياسة، وجبهة العلماء في أكثر من موضوع، وجبهة القضاة في موضوع القضاء العادل في الإسلام، ولاشك أن صلاح الأمة بصلاح حكامها وعلمائها، وفساد الأمة بفساد حكامها وعلمائها.

- تناولت الموضوعات الاعتزاز بالحضارة الإسلامية والتحذير من الأخذ بالتقاليد الغربية.

الفصل الأول
الإمام محمد الخضر حسين
تنشئة وشيخاً للأزهر

المبحث الأول
عوامل تكوين الشخصية من خلال التنشئة

- المطلب الأول: الإمام محمد الخضر حسين، رحمه الله:

هو: محمد الخضر حسين بن علي بن عمر الحسني التونسي[1].

ولد الشيخ محمد الخضر حسين بالقطر التونسي في ٢٦ من رجب، سنة ١٢٩٣هـ، وهو من أسرة كريمة أصلها من الجزائر.

- نشأته:

نشأ وتأثر بأبيه وخاله، وحفظ القرآن الكريم، وشدا جانباً من الأدب، وألم بمبادئ العلوم العربية والعلوم الشرعية، ثم انتقل مع أسرته إلى العاصمة التونسية، وهو في الثانية عشرة من عمره (سنة ١٣٠٥ هـ) فالتحق بجامع الزيتونة[2] سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م).. ونال شهادة العالمية من جامعة

---

(١) الزركلي، الأعلام، ١١٢/٦.

(٢) الزيتونة: «الثابت أن مسجد الزيتونة قد اشتهر رسمياً بطلابه وعلمائه منذ عهد السلطان يحي بن زكريا سنة ٦٧٦هـ»، محمد رجب البيومي، مجالس العلم في حرم المسجد (المؤسسة العربية الحديثة) ص١٥٩.

الزيتونة، ثم رحل إلى الشرق سنة ١٣١٧هـ، وما كاد يبلغ طرابلس ويقيم بها أياماً حتى عاد إلى تونس فلازم جامع الزيتونة يفيد ويستفيد.

ثم أنشأ مجلة السعادة العظمى سنة ١٣٢١هـ.. وفي سنة ١٣٢٤هـ (سنة ١٩٠٥م) ولي قضاء بنزرت ومنعلقتها والتدريس والخطابة بجامعها الكبير، ثم استقال وعاد إلى القاعدة التونسية، وتطوع للتدريس بجامع الزيتونة.. ثم تم تعيينه رسمياً مدرساً بجامع الزيتونة...

- جهاده وجهوده:

لما قامت الحرب الطرابلسية بين الطليان والعثمانيين[1] وقف قلمه ولسانه على الدعوة لمعاونة الدولة العثمانية، ثم رحل إلى الجزائر، وألقى بها الدروس المفيدة، ثم عاد إلى تونس.. وحاولت الحكومة ضمه إلى محكمة فرنسية فرفض الاشتراك فيها، وفي سنة ١٣٢٩هـ وجهت إليه تهمة بث روح العداء للغرب، وبخاصة لسلطة الحماية الفرنسية، وأحس أن حياته وحريته في خطر، فسافر إلى

---

(١) «الدولة العثمانية: ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري، الموافق الثالث عشر الميلادي، تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام ٦١٧هـ الموافق ١٢٢٠م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول..»، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق: بسام الجابي للقرماني، ص١٠؛ نقلاً عن: علي محمد محمد الصلابي، الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط، (دار القمة) ص٤٤.

الأستانة بحجة زيارة خاله بها، وبدأ رحلته بزيارة مصر في طريقه إلى دمشق، ثم سافر إلى القسطنطينية[1].

ولما ظن أن الزوبعة هدأت عاد إلى تونس... وما كاد يستقر بتونس حتى أيقن أنه لا مجال لبقائه في هذا الجو الخانق، فأزمع الهجرة منها نهائياً فراراً بدينه وحريته، واختار دمشق وطناً ثانياً له، ومر بمصر في طريقه إلى الشام فتلبث بها قليلاً، وتعرف إلى طائفة من أعلام علمائها النابهين.. ثم سافر إلى القسطنطينية... ثم عاد إلى تونس فنشر رحلته وآراءه ودعوته الإصلاحية ببعض الصحف..

ولكنه ما عاد إلى تونس ليستقر فيها، بل شد الرحال إلى دمشق... وعين مدرساً للغة العربية، سنة ١٩١٢م، ثم سافر إلى الأستانة ولقي وزير حربيتها «أنور باشا»[2] فاختار الشيخ محرراً عربياً بالوزارة، وفي هذا المنصب عرف كثيراً من التيارات الخفية والظاهرة، وشاهد الدولة تترنح تحت تأثير عوامل الفساد.

وفي سنة ١٣٣٣هـ رحل إلى برلين في مهمة رسمية، فقضى في ألمانيا تسعة أشهر اجتهد خلالها أن يتعلم الألمانية ثم عاد إلى الآستانة.. وحن إلى دمشق

---

(١) القسطنطنية: عن أبي قبيل... «سُئِلَ رَسُولُ ﷺ: أيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلاً: قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلاً» والقسطنطينة هي استنبول الآن؛ أحمد في مسنده، ح ٦٦٤٥، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أنور باشا: ناظر الحربية العثمانية. الزركلي، الأعلام، ٢١٣/٨.

فعاد إليها، وكان الحاكم العام حينئذ أحمد جمال باشا[١] الطاغية الجبار، الذي لم يكد رجل فاضل يسلم من شره، فامتد شره إلى الشيخ واعتقله في رمضان سنة ١٣٣٤هـ، وأخيراً تم الإفراج عنه. ووصل إلى الأستانة، ثم أوفده أنور باشا للمرة الثانية إلى ألمانيا سنة ١٣٣٥هـ فالتقى فيها الحركات الإسلامية... ثم عاد الأستانة، ثم إلى دمشق فتولى التدريس بالمدرسة السلطانية مرة أخرى بقية سنة ١٣٣٥هـ وسنة ١٣٣٦هـ... ثم استقر عزمه أخيراً على أن يستوطن القاهرة.... فحضر إليها سنة ١٣٣٦هـ، وأخذ يشتغل بالبحث والدراسة وكتابة المقالات، ثم جذبته دار الكتب المصرية إليها، فعمل محرراً بالقسم الأدبي فيها عدة سنوات، ثم تجنس بالجنسية المصرية، وتقدم لامتحان شهادة العالمية وانضم إلى طليعة علماء الأزهر.

وفي سنة ١٣٤٢هـ أسس جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية... وكان من طليعة المؤسسين لجمعية الشبان المسلمين.. ثم تفرغ لإنشاء جمعية الهداية الإسلامية.. وتولى رياسة تحرير مجلة نور الإسلام (هي مجلة الأزهر الآن)، واستقال من رياسة تحرير المجلة، وعين مدرساً بكلية أصول الدين.. وحينما تم إنشاء المجمع اللغوي كان في مقدمة من وقع عليهم الاختيار لعضويته، كما تم اختياره عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق[٢].

---

(١) أحمد جمال باشا القائد الطاغية السفاح التركي، الزركلي، الأعلام، ٢٠٣/٦، وأيضاً ٥٤/٤.

(٢) هدية مجلة الأزهر المجانية لعدد ربيع الأول سنة ١٤٢٢هـ ص١-١١ باختصار كبير نقلاً عن مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن - علي عبد العظيم.

وقد تم اختيار الشيخ محمد الخضر حسين في مستهل عهد الثورة سنة ١٩٥٢م شيخاً للأزهر في يوم الثلاثاء ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٣٧١هـ/١٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٢م[1].

- وفاة الإمام:

بعد حياة حافلة بالعطاء والإنجاز لبى الإمام نداء ربه عز وجل.

يقول الدكتور البيومي: «ولكن أعباء السنين تتراكم على كاهله الضعيف، فيترك المشيخة معتكفاً محتسباً حتى يلبي نداء ربه في ١٣ رجب سنة ١٣٧٧هـ»[2].

- المطلب الثاني: مقياس عظمة المصلح من خلال التنشئة:

الشخصية الإصلاحية تتكون خلال فترات، وتتشكل ملامحها عبر سنوات، وتبدو أماراتها من خلال البدايات، وتنصهر هذه الشخصية في مجموعة من العوامل تؤدي في نهاية الأمر إلى أن تكون شخصية تاريخية لها بصماتها في الحياة، وإنجازاتها الباهرة في الحقبة التاريخية التي شغلتها في الدنيا.

وهناك عوامل مؤثرة في تكوين الشخصية الإصلاحية عند الإمام بدت معالمها من بداية التنشئة.

فقد كان للتنشئة السليمة، وظروف البيئة، التي تربى فيها، الأثر الكبير على حياة الإمام والتي انعكست آثارها عليه في بداياته الأولى، وجعلته محصناً بحفظ القرآن الكريم وملماً بمبادئ العلوم العربية والشرعية.

---

(١) السابق، ص٤.

(٢) محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية المعاصرة في سير أعلامها المعاصرين، ط١ (دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ١/٥٦.

- **أثر هدوء الطبع:**

كان الإمام محمد الخضر حسين متمتعاً بهدوء الطبع، وهذا عامل مهم في الشخصية الإصلاحية، التي تقابل في حياتها المتغيرات والمواقف، وتشهد حياتها الصراعات والنزاعات، ولهدوء الطبع أثر في المواجهة والاستمرار في طريق الإصلاح.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي عنه: «وقد تذكرت برؤيته والحديث معه كثيراً من علماء الهند، في الهدوء[1] ورسوخ العلم...»[2]، فقد كان: «هادئ الطبع وقورًا»[3].

- **أثر الابتلاء:**

الابتلاء من العوامل المؤثرة في الشخصية الإصلاحية، لما له من آثار إيجابية على الشخصية من الصبر و التحمل، وقدرة التصدي للمشكلات، وحسن إدارة المواقف، والتعامل الجيد مع الحياة بما فيها من تقلبات واضطرا بات.

وقد ابتلي الإمام، رحمه الله، وتعرض لصنوف من الأذى من الصادين عن سبيل الله، سواء كانوا من المحتلين الغزاة أم كانوا من الجبابرة الطغاة، وهذا يجلي

---

(١) في مقابلة مع أ. د. محمد رجب البيومي في بيته، في ١٤من شعبان، سنة ١٤٢٨هـ قال: لقد جلست مع الشيخ، وكان صوته همساً همساً همساً -كررها ثلاث مرات.

(٢) أبو الحسن علي الحسني الندوي، مذكرات سائح في الشرق العربي، ط٣ (مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص ٩٩.

(٣) الزركلي، الأعلام، ٦/١١٢.

أن التمكين لابد أن يسبقه ابتلاء، كما هي سنة الله عز وجل، وقد كان الإمام، رحمه الله، في مواجهة هذه الابتلاءات ملتزماً بالثبات على المبادئ، وعدم التزحزح عنها بأي حال، فهو في جميع فترات حياته يضرب المثل في ثبات المؤمن أمام الشدائد والأزمات.

فالفكرة العظيمة تسبقها معاناة كبيرة، ومقاساة عظيمة تؤدي إليها، وتمهد الطريق لظهورها.

وتبقى الفكرة حية في وعي المتلقين بقدر هموم أصحابها والتجارب التي خاضوها، والآلام التي مروا بها.

- أثر العمل التطوعي:

سار الإمام، رحمه الله، في كل خطوط العمل الإصلاحي، سواء أكان في الإطار الرسمي أم كان في الإطار الشعبي، وهو يضرب بهذا المثل في الجمع بين كل رؤوس الإصلاح والسير في كل خط، والضرب في كل غنيمة بسهم، وهذا يؤدي في النهاية إلى الإصلاح الشامل والمتكامل، الذي تسعد به الأمة، فقد تطوع الإمام للتدريس، وأسس الجمعيات الدينية، فكان أحد مؤسسي جمعية الشبان المسلمين، وشارك بنفسه في سد الحاجات وإزالة الآلام.

فالعمل التطوعي الجماعي كان من ركائز الإمام الفكرية، وكان واعياً تماماً أن العالم لا بد له من مشاركة فعالة في خدمة المجتمع من خلال جهد جماعي، وعمل مؤسسي شعبي خدمي، وهذا ما دعا إليه الإمام في رسائل الإصلاح، وقبل دعوته إليه طبقه في حياته وجسده في سيرته، ودلل على أنه مصلح من

خلال القول والعمل، والوعي والتنفيذ، وأيضاً من خلال الجهاد والكفاح والنضال في الميادين العملية، والمجالات الحيوية، التي تنفع المجتمعات الإسلامية، وتسعد بها الأمة في مشارق الأرض ومغاربها.

ودعا الإمام إلى إقامة الجمعيات بكل أغراضها، حتى الجمعيات التي تهتم بالحيوان.

فهو يقول: «هذا، والأمل معقود على أن تؤلف في أوطاننا جمعيات لمراقبة تصرف الناس في الحيوان، حتى إذا رأت صاحب الحيوان يرهقه بحمل الأثقال أو يناله بأذى سعت بما تستطيع من طرق النهي عن المنكر إلى إزالة ما تشهده من الإرهاق أو الأذى، فيكون لها حمد الناس في الدنيا، وثواب الآخرة»[1].

وهذه الدعوة دالة على أن إقامة الجمعيات، وتعدد نشاطاتها، وتنوع مجالاتها يصب في نهاية الأمر في صالح المجتمع، ويشكل جوانب أساسية في الرسالة الإصلاحية، وهذا ما كان الإمام داعياً إليه.

- أثر العمل الإعلامي:

كان الإعلام عاملاً مؤثراً في تكوين الشخصية الإصلاحية للإمام، رحمه الله، فقد سعى إلى تأسيس المجلات العربية التي تسهم في تحقيق النهضة، وتشارك بما فيها من إسهامات في نشر القيم والمفاهيم الأصيلة.

فالنهج العملي كان عاملاً مؤثراً في الشخصية الإصلاحية للإمام، حيث كان من أصول حياته العملية، وقد باشره تدريساً وتعليماً وإعلاماً وتأليفاً،

---

(١) رسائل الإصلاح، ١٤٧/١.

وأيضاً من خلال تأسيسه الجمعيات الاجتماعية، ومشاركته في الجمعيات الدعوية والإصلاحية، وإسهاماته في المجلات العربية، وهذا يجلي البعد الإصلاحي عند الإمام.

- المطلب الثالث: مقياس عظمة الحياة عند المصلحين:

عظمة الحياة الإنسانية بقدر ما فيها من تجارب، ووقائع، وقضايا، وأحداث، وشؤون، وأمور، فكل هذا يشكل ملامح الحياة، ويضع المعالم العامة لها.

وعظمة الإنسان بقدر تجاربه وخبراته وعلاقاته بغيره، وإنجازاته التي حققها من خلال خبراته بالحياة، واحتكاكه بالناس.

أما الإنسان الذي يسلم نفسه للدعة، ويؤثر الراحة، ويبتعد عن الحياة بما فيها من اضطرابات وتغيرات وتقلبات، ويرضى أن ينسحب من الدنيا وهو على أرضها، ويقدم استقالته للحياة وهو على قيدها، فهذا إنسان عديم القيمة، لا وزن له، ولا معيار حقيقي يقاس به، فليس له ذكر، ولا توجد له بصمات، ولا تقدر الأجيال له موقفاً، ولا يعرفون له تضحية، ولا يحفظون له ألماً وتعباً.

وحياة الإمام، رحمه الله، حافلة بالوقائع والتجارب والأقضية، التي اكتسب منها الخبرات وأفاد منها الفوائد، وجنى منها الثمرات، وانعكست هذه الخبرات على رسائله، وكانت ملمحاً مهماً من ملامح تفكيره في هذه الرسالة، ويمكن القول: إن من دواعي تميز كتابته خبرته بالحياة، ودرايته بشؤونها، وإلمامه بأحوالها، ومعرفته بالناس وأصنافهم وطبائع نفوسهم المعرفة الجيدة.

- أثر السفر والرحلات:

السفر والرحلات يُكسب الشخصية مهارات، ويعطيها خبرات، وتفيد منها ثقافات عدة، وتؤدي الرحلات إلى التعرف على الناس من خلال الاحتكاك بهم والتعامل معهم، وقد ظهرت المعرفة الجيدة للناس من خلال كتابات الإمام، رحمه الله، وهذه المعرفة الجيدة من مصادرها السفر والرحلات التي كان لها جد الأثر في تكوين الشخصية الإصلاحية للإمام، رحمه الله.

فقد كثرت رحلاته، وتنقلاته بين بلدان العالم الإسلامي، وكان له في كل بلد بصمة إصلاحية، ومشاركات فعالة في تحقيق النهضة الشاملة.

وقد كثرت زياراته للدول الغربية وتعرفه على أوجه النهضة فيها، وتأثره بالتقدم المادي والحضاري بها، وقد ضمن في رسائل الإصلاح مشاهداته في هذه الدول، ودعا إلى الأخذ بأساليب التقدم المادي من أي جهة ومن أي مكان.

- أثر المشاهدات الخاصة:

الوقائع والمشاهدات الخاصة تصبغ بالصبغة المنهجية، وتوظف في إطارها السليم، وتخدم الجانب العلمي في زاوية بعينها، وقد ذكر الإمام مشاهدات خاصة له، وظفها التوظيف السليم في رسائل الإصلاح.

يقول: «ساقتني صروف[1] الليالي إلى ملاقاة طائفة من الملاحدة في تونس وفي الأستانة، وفي الشام وفي ألمانيا وفي مصر، فرأيت هذه الطوائف تتشابه في أمور يبعد أن يكون تواردهم عليها من قبيل المصادفة، وإنما هي

---

(١) صروف الليالي: النوائب والأحداث التي تجري فيها.

طبائع لما تواطأت عليه قلوبهم من جحود لآيات الله، وإنكار لدينه الحنيف، وها أنذا أتحدث عن شيء من هذه الطبائع التي لا تجتمع في شخص إلا أن يكون قلبه مصاباً بعلة الجحود»[1].

فهو يتكلم في هذه المشاهدة عن اتحاد طبائع الملحدين وإن اختلفت بلادهم ولغاتهم ومستوياتهم، وقد تأكد له ذلك من خلال من لاقاهم من الملحدين في كثير من البلاد العربية والغربية.

ويقول في مشاهدة أخرى: «وأذكر بهذه المناسبة أن ببلاد الجزائر قبراً عليه بناء يقال إنه قبر خالد بن سنان[2]، ويجتمع الناس لزيارته في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان، وشهدت الاجتماع به في بعض السنين، ورأيت هنالك بدعاً تقام حول القبر، وعسى أن يكون أهل العلم قد قاوموها، وليس لهم من أثر على أن هذا قبر خالد بن سنان سوي ما شاع هنالك من أن بعض الصالحين أخبر بذلك»[3].

فهو يحذر من تعظيم القبور، وإقامة البدع حولها، والاعتقاد في أصحابها، ويبين أن قبوراً منسوبة لناس بأعينهم قائمة نسبتها على إشاعات وحكايات ليست من الحقيقة في شيء.

---

(١) رسائل الإصلاح، ٢١٦/١.

(٢) خالد بن سنان العبسي، قال عنه ابن يونس: هو صحابي شهد فتح مصر...، ويقال إنه ولي القضاء بها.... الإصابة في تمييز الصحابة، ٨/٣.

(٣) رسائل الإصلاح، ٢٦١/١.

فقد وظف الإمام، رحمه الله، مشاهداته في البلاد، التي سافر إليها في مجال الدعوة ترغيباً في أمر وترهيباً من أمر، وهذا يجلي بعض مصادر المعرفة للإمام، وأرى أنها كما يلي:

- معارفه من الدول العربية والغربية التي سافر إليها.
- معارفه من تجاربه مع الناس واحتكاكه بهم، وخبرته بكيفية التعامل معهم.
- معارفه من مشاهداته للأماكن، وزياراته للمواقع المختلفة.
- معارفه من لقاءاته بأصحاب الأفكار والمذاهب المختلفة.

فالإمام، رحمه الله، لم يكن يترك مصدراً للمعرفة إلا وأفاد منه، ويبقى مخزوناً فكرياً عنده يستدعيه عند الحاجة إليه في كتاباته الإصلاحية.

ولهذا أيضاً يمكن القول: إن الإمام عانى الفكرة قبل أن يكتبها، وعاش المبدأ قبل أن يسطره، ومر بالتجارب التي أهلته أن يكتب الأمور الكبيرة، وأن يضع الملامح العظيمة، ولا يشعر القارئ أن الكاتب بعيد عما كتب، أو أنه يكتب من برج عال أو يحلق تحليقاً أدبياً في سماء الفكرة بعيداً عن الواقع بضغوطه وآلامه وأهواله، فهذا كله بعيد عن الإمام؛ إنما القارئ يستشعر عظمة هذا الكاتب، ومدى عظمة حياته الحافلة بالعطاء والممتلئة بالتجارب الثرية، وبالدروس والعظات الغنية، التي انعكست على مؤلفاته، ولمسها القارئ في كتاباته.

المبحث الثاني

الإمام محمد الخضر حسين شيخاً للأزهر

- المطلب الأول: أثر تولي مشيخة الأزهر على الإمام:

كانت مشيخة الأزهر من المنح الإلهية للإمام، رحمه الله، إذ المعهود أن يتولى المشيخة أحد أبناء الأزهر الأصليين، وأحد العلماء المصريين، لكن عندما يتولى المشيخة هذا الإمام، الذي كان مولده بتونس، فهذا من تدبير الله تعالى له، ومن توافق الأسباب لرفعته وإعلاء شأنه، وإبراز مكانته للعالم الإسلامي بأسره.

«في مستهل عهد ثورة ١٩٥٢م رأت أن يتولى قيادة الأزهر مناضل عربي من زعماء علماء المسلمين ومن قادتهم في مناضلة الاستعمار في أقطار العالم العربي، فانعقد الإجماع على اختيار الشيخ الإمام السيد محمد الخضر حسين، وفي يوم الثلاثاء ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٣٧١ هـ (١٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٢م) خرج من مجلس الوزراء أثناء انعقاده ثلاثة من الوزراء توجهوا إلى البيت الذي يسكن فيه الشيخ بشارع خيرت وعرضوا عليه باسم الثورة مشيخة الجامع الأزهر»[1].

---

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، علي عبد العظيم، بتصرف، نقلاً عن هدية مجلة الأزهر ص٤، لعدد ربيع الأول سنة ١٤٢٢هـ، ص١٤٧-١٦٢.

وقد توجت رحلة جهاده بتوليه مشيخة الأزهر.

والإمام لم يطلب مشيخة الأزهر، وإنما طُلب، ولم يكن في ذهنه ولا في تصوره هذا المنصب، ولكن الله تعالى غالب على أمره، وسعت إليه الحكومة لتعرض عليه هذا المنصب المهم، وعندما يُعرض المنصب على العالم ولا يسعى إليه بنفسه، فهذا دليل عزة ووقار، وأمارة رفعة وفخار، فالمناصب لها أعباؤها الجسام، ومقتضياتها الهائلة والذي يخلص منها بالحق، ويسخرها لخدمة المسلمين، فإن حال هؤلاء كاللبن الذي يخلص من بين فرث ودم، وهذا الخلوص بقدرة الله تعالى؛ وخلوص بالمنصب من هذا كله يحتاج إلى إعانة كبيرة من الله تعالى، ورغبة صادقة وإرادة حازمة في السعي بالمنصب لخدمة الإسلام. فكان العرض من الحكومة على الإمام دلالة على الوعي بما لديه من إمكانات، وما عنده من صلاحيات تتفق مع طبيعة المرحلة التي تمر بها الدولة في هذا الوقت.

ففي هذه المرحلة التاريخية، التي لها ظروفها الخاصة كان تولي الإمام مشيخة الأزهر منحة من الله تعالى، وتدبيرًا لأمره، وإظهارًا لقدره، وتجلية لحكمة الله تعالى في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وإن كان من غير أبناء مصر، إلا أن توليته لكفاءته وقدرته وأهليته، فيكون تقديمه على غيره هو تنفيذاً للأمانة المطلوبة، وتأدية للرسالة الصحيحة.

يقول الإمام: «ولارتباط سعادة الأمة باستقامة القضاء جاز للرئيس الأعلى متى رأى في أهل العلم من هو أدرى بمسالكه وأقدر على القيام بأعبائه أن يكرهه على ولايته بالوسائل الكافية..» (١).

---

(١) رسائل الإصلاح، ٣٥/١.

لكن الأمر بكل وضوح فوق تدبير وإمكانات البشر، فالوصول إلى مثل هذا المنصب المهم والمشكل ملامح الأمة والمرتبط بالتاريخ، مثل هذا الوصول - فوق تدبير وإمكانات البشر، إنما هو من تدبير الله تعالى للإمام، وتجليه لسنة الله تعالى في عدم تضييع عمل العاملين وجهد المجتهدين.

- اعتزاز الإمام بالأزهر الشريف:

الأزهر مؤسسة إسلامية عريقة يشع من جنباتها نور العلم في جنبات الأرض كلها، ويعقد عليها العالم الإسلامي بعد الله تعالى الآمال في إصلاح واقع الأمة الإسلامية، وكان في التفكير الإصلاحي للإمام محمد الخضر حسين، رحمه الله، دور الأزهر وأهمية انطلاق الإصلاح منه، فقد كان معولاً عليه، ومعتزاً به، ومثنياً على نظام التعليم فيه.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في مقابلة يوم الاثنين ١٣/٥/١٣٧٠هـ- ١٩/٢/ ١٩٥١م مع فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين: «.... وسألته عن مدة إقامته في مصر، فقال: لي الآن ثلاثون عاماً في مصر، وأصلي من الجزائر، ومولدي تونس، وقضيت نحو عشرة أعوام قبل مصر في سورية وغيرها.. وقد تخرج في جامع الزيتونة بتونس وأقام في ألمانيا. كذلك سألته عن الأزهر وجامع الزيتونة أيهما أقدم، وأيهما أعظم، فقال: الأزهر أقدم وأعظم، ويليه في القدم وكثرة الطلبة جامع الزيتونة...» [1].

---

(١) أبو الحسن علي الندوي، مذكرات سائح في الشرق العربي، ص٩٩.

فالإمام، رحمه الله، يجمع في وصفه للأزهر بين القدم والعظم في مجال المقارنة بينه وبين جامع الزيتونة، وهذا الوصف يجلي مكانة الأزهر في قلب الشيخ، ومدى تغلغله في وجدانه.

- طبيعة الاعتزاز بالأزهر:

كان الإمام، رحمه الله، معتزًّا بالأزهر كمؤسسة عريقة وكعبة للعلم، ولم يكن اعتزازه بالمنصب المجرد، وفرق كبير بين الاعتزاز المجرد بالمنصب والاعتزاز الموضوعي، وبين الاعتزاز الذي يؤدي إلى تحول المنصب إلى وثن يعبد من دون الله، وبين الاعتزاز الذي يرافق صاحبه في فترة وجوده في منصبه إلى أن يسلمه إلى غيره كاملاً غير منقوص، ومجبورًا غير مكسور، ومرفوعًا غير مهان.

كان يقول: «إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها - حين أسلمها - موفورة، كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يديَّ، فلا أقل من ألا يحصل له نقص»[1].

وهذا الفهم لما يشكله الأزهر من دور كبير في حياة الأمة كلها، ولابد من الوعي بحقيقة المنصب، وبما يترتب عليه في تاريخ الأمة الإسلامية.

---

(١) عبد الحليم محمود، الحمد لله هذه حياتي، ط٣ (دار المعارف) ص١١٠.

- المطلب الثاني: أخلاقه في تولي المنصب:

الأخلاق ركيزة كبرى من ركائز الشخصية الإصلاحية، وعماد أساسي من عمد استقرارها على مبادئها وقيمها في كل مراحل حياتها.

فالمبادئ والقيم عند الشخصية الإصلاحية معلم من معالم كل مرحلة، والتمسك بها من أوجب الواجبات، ومن دلائل ذلك:

- التحرر من عبودية المنصب:

المنصب له شهوته، التي تجذب أصحابه إلى الدنيا ومتطلباتها، وذلك بتعلق القلب الزائد عن الحد، والافتتان بالكرسي، وشهوة الرياسة، وحب الجاه، وقلَّ من يسلم من آفات المنصب، ويتخلص من عبوديته.

والإمام، رحمه الله، لم يفتنه المنصب، ولم يكن حريصاً عليه، بل ما دار في ذهنه أن يتولى مشيخة الأزهر، وما سعى إلى هذا المنصب بأي حال، فكيف إذا تولاه يكون حريصًا عليه متمسكًا به؟!، إنما كان حريصًا على أن يؤدي رسالة من خلاله، ووجد أنه في حالة عدم تمكنه، وعجزه وهو في منصبه أن الأولى أن يتقدم باستقالته، وهذا من تمسكه بالمبادئ، وحرصه على سيادتها وانتشارها.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: «ولأنه لم يكن له في شهوات المنصب من حظ، فإنه كان دائماً يحتفظ باستقالته في جيبه»[1].

---

(١) السابق.

«ويذكر أصدقاؤه أنه استقال من منصبه الكبير عدة مرات، وأصر في آخر مرة على ترك المنصب بسبب توحيد القضاء، لأنه كان من رأيه أن يندمج القضاء الأهلي في القضاء الشرعي وليس العكس، لأن الشريعة الإسلامية ينبغي أن تكون هي المصدر الأساسي للقوانين. ويذكر آخرون أنه استقال بسبب ضعف صحته وأعباء كهولته»[1].

وسواء كانت استقالته لتمسكه برأيه، وحرصه أن تكون المرجعية للشريعة الإسلامية أم كانت استقالته لمرضه وأعباء كهولته، فإن الإمام، رحمه الله، ما كان حريصًا على المنصب، وما كان مضيعًا دينه بسببه، إنما كان المنصب وسيلة لغاية، ولم يكن غاية في حد ذاته.

- عفة الإمام وزهده:

من مواقفه في منصبه عدم التربح من ورائه والإفادة المالية منه، وأيضاً عدم اتكائه عليه، ورفعه فوق حده، وإعطائه أكثر من حجمه، فيترتب على هذا تحول المنصب إلى إله يعبد من دون الله، وتذهب في سبيله كرامته، وتضيع هويته كعالم ومرب وفقيه.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود عن الإمام محمد الخضر حسين: «وحينما تولى مشيخة الأزهر لم يغير شيئاً من عاداته، كان على

---

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، علي عبد العظيم نقلاً عن هدية مجلة الأزهر المجانية، عدد ربيع الأول سنة ١٤٢٢هـ، ص١١.

استعداد كامل ودائم لأن يعيش على كسرة من الخبز، وكوب من اللبن»[1].

«ومهما يكن من أمر فإنه، رحمه الله، لم يكن أسيراً للمنصب يوماً من الأيام، فقد كانت عفته وعفافه مضرب الأمثال، وكثيراً ما قال: يكفيني كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدها العفاء... استقال الشيخ من منصبه في الثاني من جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ، الموافق السابع من يناير سنة ١٩٥٤م»[2].

فالإمام يضرب أروع الأمثلة في الزهد في المنصب، فبالرغم من امتلاكه المنصب إلا أن قلبه لم يكن متعلقاً به، وبالرغم من وجود أسباب الثراء إلا أنه كان زاهدًا، وحقيقة الزهد ليست مع القلة إنما هي مع الكثرة، وليست مع الفقر، إنما مع الامتلاك، فقد كان الإمام، رحمه الله، من أهل العفة والزهد بحق، راضيًا بالقليل، قانعًا باليسير، ليس متطلعًا لشيء دنيوي، أو لحظ نفسي، أو عطاء مادي.

---

(١) الحمد لله هذه حياتي، ص١١٠.
(٢) هدية مجلة الأزهر، ص١١.

- المطلب الثالث: ممارسة النشاط العلمي:

تولي العالم المنصب يصرفه كثيرا عن العلم والقراءة، وعن البحث الجاد، والرجوع إلى المصادر والمراجع؛ وذلك لأن وقته موزع بين الأعمال الإدارية، وجهده في المتابعة والمراقبة والملاحظة، وهذا يجور على الجانب العلمي كثيرا، ويصرف العالم تمامًا عن مناخه العلمي وأجوائه البحثية.

لكن الإمام، رحمه الله، لم يكن المنصب عائقاً له عن طلب العلم، ولا حاجزاً عن الكتابة في المجلات، وإصدار الكتب والمؤلفات، وكان متمسكاً بالإطار العلمي إلى آخر لحظات حياته.

فقد «تولى الشيخ مشيخة الأزهر عام ١٩٥٢م واستقال منها عام ١٩٥٤م، ولكنه ظل يمارس نشاطه العلمي حتى آخر لحظة في حياته»[١].

«وكان آخر مقال نشر له في عدد فبراير سنة١٩٥٨م من مجلة لواء الإسلام، وهو الشهر الذي توفي فيه»[٢].

---

(١) محمود حمدي زقزوق، من أعلام الفكر الإسلامي، سلسلة دراسات إسلامية، عدد ١٥٢، صفر سنة ١٤٢٩هـ، فبراير سنة ٢٠٠٨م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص٣١.

(٢) من أعلام الفكر الإسلامي، ص٣١.

يقول الإمام، رحمه الله: «لم يقض حق العلم، بل لم يدر ما شرف العلم ذلك الذي يطلبه لينال به رزقاً أو ينافس فيه قريناً، حتى إذا أدرك وظيفة أو أنس من نفسه الفوز على القرين أمسك عنانه ثانية، وتنحى عن الطلب جانباً، وإنما ترفع الأوطان رأسها، وتبرز في مظاهر عزتها، بهمم أولئك الذين يقبلون على العلم بجد وثبات، ولا ينقطعون عنه إلا أن ينقطعوا عن الحياة»[1].

وكان الإمام على وفق ما كتب من الإقبال على العلم بجد وثبات حتى الممات.

- **مؤلفات الإمام:**

ألف الإمام في ميادين العلم الواسعة، وكما يقول الدكتور محمد رجب البيومي في مقدمة هذا البحث:

«إن شيخنا العلامة الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ذو ميادين واسعة في التأليف العلمي، فقد ألف في التاريخ الإسلامي والتشريع الفقهي والإصلاح الديني والنقد الأدبي كتباً رائعة تنطق بفضله الكبير»[2].

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٨٥.

(٢) مقدمة البحث، ص ٥.

ومن هذه المؤلفات: حياة اللغة العربية؛ الخيال في الشعر العربي؛ بلاغة القرآن؛ محمد رسول الله؛ تونس وجامع الزيتونة؛ السعادة العظمى؛ خواطر الحياة؛ نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم؛ طائفة القاديانية؛ مدارك الشريعة الإسلامية[1].

ومن الطبيعي أن يكون الشيخ محباً لهذه المؤلفات، حريصاً على نشرها وإهدائها.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في مقابلة له مع الشيخ الخضر:

(وأهدى إلينا كتباً من تأليفه منها: «رسائل الإصلاح» وهي مجموعة مقالاته في الدين والاجتماع والأخلاق، في ثلاثة أجزاء، وآداب الحرب في الإسلام و«خواطر الحياة» وهو ديوان شعره، و«طائفة القاديانية»)[2].

---

(١) الزركلي، الأعلام، ٦/١١٢.

(٢) أبو الحسن الندوي، مذكرات سائح في الشرق العربي، ص٩٩.

المبحث الثالث

الإصلاح من خلال الأزهر

- المطلب الأول: أثر المؤسسات الإسلامية في الإصلاح:

للمؤسسات الإسلامية أثر كبير في الإصلاح والتغيير.

يقول الدكتور محمد البهي: «الإصلاح نفسه مرتبط في حاله بالقائمين بشأنه وبالمؤسسات الإسلامية، التي لها طابع البحث أو الدعوة في مجال التعاليم الإسلامية، وفي مقدمة هذه المؤسسات الأزهر»[1].

ويقول: «فهل يصبح الأزهر الآن لشعب مصر والشعوب الإسلامية معه؟ الإسلام في غده يتأثر قوة وضعفاً بقوة الأزهر وضعفه»[2].

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود: «لقد قال لي مرة أحد كبار المفكرين الغربيين: إن جدران الأزهر، وأعمدة الأزهر، وأرض الأزهر، وجو الأزهر، كل ذلك مشبع بالعلم منذ مئات السنين»[3].

وقد تولى الإمام، رحمه الله، مناصب كثيرة، تمكن في حدود صلاحياته أن يحقق من خلالها الخير لأمته، وأن يوظفها توظيفًا سليمًا لخدمة الأمة.

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص٤٦٤.

(٢) السابق، ص٤٦٨.

(٣) عبد الحليم محمود، الحمد لله هذه حياتي، ص٨٩.

«وتولى الأستاذ الإمام منصبه وفي ذهنه برنامج إصلاحي كبير للنهضة بهذه المؤسسة الإسلامية الكبرى وجعلها وسيلة لبعث النهضة الإسلامية العظمى، التي يتطلع إليها العالم الإسلامي في جميع القارات»[1]. فالمنصب من العوامل المؤثرة، وذلك لسرعة الإصلاح من خلاله، ولقدرة أصحابه على اتخاذ القرار الذي يحظى بالتنفيذ.

والإصلاح من خلال المؤسسات له انعكاسه الكبير على الأمة الإسلامية، وله آثاره الإيجابية في كل الميادين والمجالات الحيوية بالأمة، وهذا ما كان في فكر الإمام حيث جند نفسه للعمل الإصلاحي في هذه المؤسسة العريقة، وأيقن أن تفانيه في خدمة الإسلام من خلالها، وأن جهده المبذول تحت لوائها سيكون له النتائج العظيمة، كماً وكيفاً، في واقع الأمة الإسلامية.

يقول د. البيومي:

«أما مشيخته الكبرى للأزهر فقد كانت دليلاً على أن الله لا يتخلى عن رجاله المناضلين، إذ يأبى عدله الرحيم أن يترك هذه الجهود المضنية في الدين واللغة والأدب تضيع بدداً دون تقدير مادي ملموس، فرأى الأزهر لعهده حلقة ذهبية من حلقات الكمال والجلال والوقار، وطفق الزائرون من كتّاب وعلماء وصحفيين يتقاطرون على مكتبه، وكلهم يسأل عن أمور هامة في الإصلاح

---

(١) نقلاً عن مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، علي عبد العظيم، ص١٠.

الديني والتشريع الإسلامي، والتقدم الحضاري، فيجد الإجابة الرصينة السديدة يفوه بها شيخ الإسلام الدّارس المستنير»[1].

وكان تولية مشيخة الأزهر ظرفاً مساعداً على النداء بالإصلاح؛ والمناخ الموجود في تلك الفترة التاريخية كان مهيأ تماماً لمثل هذه الشخصية غير المصرية أن تتولى هذه المؤسسة العريقة، وهذا يدل على أن الأزهر ليس ملكاً لمصر وحدها، إنما هو ملك للعالم الإسلامي كله.

- المطلب الثاني: توظيف المنصب في الإصلاح:

المنصب له الأثر الكبير في التغيير والإصلاح، فالنظرة إليه تكون من خلال توظيفه في خدمة الدعوة الإسلامية وتلبية حاجاتها، وتحقيق أغراضها، ومن خلال قضاء الحاجات، وتلبية المطالب، وتيسير الأمور، وتذليل الصعوبات، ومن خلال إعطاء المنصب حقه، والقيام بالرسالة فيه على خير ما يكون وتأدية الأمانة بكل مضامينها وبجميع أبعادها.

ومن خلال وقوف مصلح على مؤسسة كبيرة مثل الأزهر تتغير لموقفها أوضاع، وتتعدل نظم، وتتحدد رؤى، وترسى معالم، وتصبغ ملامح، يتحقق للرسالة الإصلاحية نجاحات عظيمة.

وكان لزامًا أن يكون المصلح على مستوى الرسالة، علماً وعملاً، ووعياً وتطبيقاً، وفكرة وتنفيذاً، وأن يكون توليه المنصب مسهماً في رسالته

---

(١) محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية المعاصرة في سير أعلامها المعاصرين، ٦٦/١.

الإصلاحية وليس عائقاً ولا هادماً جهوده السابقة، وبهذا يكون المشروع للنهضة ناجحاً بكل المقاييس.

ولقد كان وعي الإمام، رحمه الله، بهذه الحقائق كبيراً، فعمل على تنفيذها في فترة توليه مشيخة الأزهر، وزاد إليها الكثير، وأضاف إليها من خبراته وتجاربه، وأبقى عليها بصماته، التي لا يمحوها الزمان ولا تنساها الأجيال.

وهذا يجلي أن رؤاه الإصلاحية في رسالته لم تكن من فراغ، إنما كانت نتيجة احتكاكات وتجارب، وخبرات طويلة أمضاها واكتسبها من واقع الحياة.

وكما كانت مواقفه في حياته العملية كانت مواقفه الثابتة الرائعة في مناصبه، التي تولاها بصفة رسمية، فالعالم بحق ما هو إلا موقف يسطره التاريخ بمداد من ذهب على صفحات من نور، وكان الإمام من هؤلاء العلماء أصحاب المواقف.

فقد «أعطى المنصب حقه من الرعاية والتكريم، فما كان يتطامن أمام حاكم، ولا كان يجامل على حساب عقيدته أو دينه، وكان هذا شأنه منذ نشأته - ومما هو مأثور عنه قبل ولايته هذا المنصب الكبير، أن أبا رقيبة، رئيس الجمهورية التونسية، زار القاهرة وأرسل السفير التونسي إلى الشيخ يطلب منه الانتقال إلى رئيس الجمهورية لزيارته، فقال له: ولماذا لا يأتي رئيس الجمهورية لزيارتي؟ والواقع أنه كانت

بينهما مودة، ولكن الشيخ أخذ عليه أنه لم يلتزم في حكمه التشريع الإسلامي الدقيق»[1].

فالإمام في مثل هذا التصرف يريد أن يعطي رسالة للحاكم، مضمونها ما يلي:

- إبراز مكانة العالم، وعزته، وشموخه، وأن العلم يؤتى إليه، ويحرص على لقاء أهله.

- إبراز السلطان الحقيقي وهو سلطان العلم وليس سلطان الحكم.

فسلطان العلم هو السلطان، وهو الذي له امتلاكه للنفوس، وموقعه الفريد في القلوب، ولا ينازع موقع العالم في القلب أحد مهما كانت مكانته، ومهما بلغت درجته.

- وعي الإمام بسلطانه، وإدراكه مكانته، فهو يمثل كل عالم، ويعطي القدوة لكل مصلح، فلا يقبل منه في هذا الموقف إلا مثل هذا التصرف.

وقد يقول البعض: وماذا في إكرام الضيف والذهاب إليه؟!، وماذا في استقبال القادم والترحاب به؟! وماذا يحدث لو ذهب العالم إلى الحاكم تعظيمًا لمكانته وخضوعاً شرعيًّا له؟!

وهذا مقبول بلا شك في التعامل مع الحكام، الذين تلزم طاعتهم، ويحرم الخروج عليهم، لكن في مواقف بعينها يكون من الفقه إظهار المواقف للرعية؛ لتتضح الأمور عندهم؛ وينتفي أن يكون العلماء من الموالين

---

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، علي عبد العظيم، ص١٠.

للطاغين؛ وبهذا لا ينطبع في أذهان العامة أن العالم فرّط في دينه، وميَّع رسالته، فإنه إذا سقط جدار العالم، فإن النكبة بسقوطه عظيمة، وماذا يتبقى للأمة إذا خُذلت في علمائها ومصلحيها؟!

- الامتناع من الذهاب إلى الحكام ليس لعلة شخصية، إنما لأسباب جوهرية، ودواع موضوعية، فبين العالم والحاكم الدين، فإن قدر الحاكم الدين، وطبق شريعة الإسلام، وكان حريصاً على سياسة رعيته بأصول الشريعة، فإن طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله.

فمن مقومات الشخصية الإصلاحية للإمام تمسكه بالمبادئ في المناصب وعدم تنازله عنها أو تمييعه لها.

فالالتزام بتعاليم الإسلام واجب كل إنسان، وإلزام الآخرين بتعاليم الإسلام شأن المصلحين، الذين لا يعفون أحداً من مسؤولية، إنما يتعاملون بالإسلام مع الحاكم والخادم، ويظهرون أمام الجميع بعزة العالم وهيبة المصلح، الذي لا يقبل الدنية في دينه، وهكذا كان الإمام محمد الخضر حسين، رحمه الله.

- المطلب الثالث: الربط بين النهضة المصرية ورجال الأزهر:

يربط الإمام، رحمه الله، بين النهضة في مصر خصوصاً برجال الأزهر والكفاءات العلمية والمواهب، التي تجمع بين علوم الدين والدنيا، فمن شأن الأزهر إحداث النهضة الشاملة في مصر خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً، وقد كان الإمام حريصًا على الإصلاح من خلال مشيخة الأزهر، يقول، رحمه الله:

«إن الشعوب الإسلامية منذ عهد بعيد في وهدة من الخمول، وانقطعت الصلة بينها وبين الأمم، فلم تدر ماذا يصنعون، حتى تراءى لها ما ينبهها من غفوتها، وحثها أن تنهض من كبوتها، فمسك بقيادتها فريق كانوا على بصيرة من هداية الإسلام، وإن شئت فقل: تقدم لقيادتها رجال مستنيرون من أبناء المعاهد الإسلامية، وآخرون مهتدون من القائمين على جانب من العلوم الكونية، فمن يتحدث عن النهضة المصرية – مثلاً – لا يحيد عن ذكر رجال استنارت عقولهم بين جدران الجامعة الأزهرية، ومن متحدث عن النهضة التونسية ذكر في مقدمة رجالها فريقاً تلقوا معارفهم بين جدران الجامعة الزيتونية، ولو استمر العمل لرقينا المدني بأيدي طوائف تجمع بين رجال الدين المصلحين ورجال العلم الحديث المهتدين، لقطعنا في سبيل السعادة شوطاً أبعد مما قطعنا»[1].

ومن هنا تتجلى عدة حقائق في الفكر الإصلاحي عند الإمام، وهي:

– الربط بين الإصلاح والدين، فالدين هو المنطلق الصحيح للإصلاح السليم، وأيضاً الربط بين الإصلاح والمؤسسات الدينية التعليمية، التي من شأنها إحداث تغيير كبير في واقع المسلمين، وأيضاً الربط بين الإصلاح والعلم السليم المستمد من الكتاب والسنة والذي يترتب عليه إصلاح شؤون الأمة في كل ميدان ومجال.

---

(١) رسائل الإصلاح، ٥٤/١.

- تمتد موضوعية الإمام، رحمه الله، إلى توسيع الدائرة أكثر، وإلى ضم مؤسسة الزيتونة بتونس مع مؤسسة الأزهر بمصر، وإلى بيان أن النهضة الإسلامية السليمة لا تقع فقط على كاهل المؤسستين، إنما لا بد من تحقيق النهضة على رجال مصلحين جمعوا بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وأن التعاون بين العلماء في كل مجال لابد أن يضع أساس النهضة المتين، ويشكل جدارها العالي.

- ربط الإمام بين النهضة المصرية والأزهر، فالأزهر من شأنه إحداث نهضة كبرى في العالم الإسلامي عموماً وفي مصر خصوصاً.

- لم تكن الانطلاقة الإصلاحية الكبيرة للإمام إلا عن طريق استقراره في مصر، وتوليه مشيخة الأزهر، فبالرغم من تنقله وتوليه مناصب كثيرة إلا أن مصر كانت باب معرفة العالم الإسلامي به، وأيضاً كانت سجلاً أساسياً لحياته، ووقائع تاريخه، وكان الأزهر هو البوابة للإمام ومشروعه الإصلاحي.

ومن المناسب القول: إن مؤسسة الأزهر العريقة يعنى بها جميع أبناء الأمة الإسلامية، ولا يقتصر إصلاحها على أبناء مصر وحدهم، إنما كل مسلم معني بالإصلاح يسعى جاهداً للقيام بما يجب عليه نحو هذه المؤسسة الكبرى لتحقيق المهام الجليلة، وهذا ما كان في فكر الإمام، رحمه الله.

الفصل الثاني
الرسائل الإصلاحية.. عرضاً وتأثيراً

المبحث الأول
الطريقة العلمية لعرض المقالات فى رسائل الإصلاح
(الجزء الأول)

- المطلب الأول: توفية الموضوع حقه:

موضوعات الإسلام موضوعات كثيرة ومتعددة، وتغطية هذه الموضوعات من الناحية العلمية من جوانب شتى، ويلزم الباحث صاحب المنهج العلمي أن يحدد المطلوب من وراء موضوعه، وأن يلتزم بما حدده لنفسه، ولا يشرد هنا وهناك بعيدًا عن لب موضوعه وجوهر قضيته العلمية. ومن السهولة أن يفقد الباحث سيطرته على الموضوع، وأن يفلت الموضوع تمامًا من يده، إذا كانت الفكرة غير محددة في ذهنه، فيتناولها تناولاً بعيداً عن الموضوع، فيكون موضوعه مهتزاً.

وموضوعات الدعوة والتربية الإسلامية بصفة خاصة تحتاج إلى دقة كبيرة وتحديد بالغ للمطلوب حتى لا يلتقي مع مطلب آخر، وتكون الجناية

في النهاية على البحث العلمي، الذي لم يأخذ حقه من التغطية المناسبة له، نظراً لعدم تحديد المطلوب من ورائه.

والأمانة العلمية تقتضي أن يلتزم الباحث بصياغة علمية محددة لا يخرج عنها ولا يتعد عن إطارها، وتكون هذه الصياغة محددة تماماً في جزئية بعينها يعكف الباحث عليها ويتولى تغطيتها من كافة جوانبها، ولأن يغطي الباحث جزئية علمية يفهمها تماماً ويستوعب مطالبها أفضل من أن يأخذ موضوعًا عامًا يكون فيه كحاطب ليل يجمع من هنا وهناك بلا إطار علمي ولا نهج بحثي سليم، وفي رسائل الإصلاح عرض لموضوعات الإسلام المختلفة، والتي قام الإمام بتغطية مطالبها وتوفية حقها، ومن نماذج ذلك، الموضوعات التالية:

- **فضيلة الإخلاص[1]:**

يبين الإمام أن مدار الإخلاص على أن يكون الباعث على العمل أولاً امتثال أمر الله، ولا حرج على من يتطلع بعد هذا إلى شيء آخر، ويبين أن المعروف عند أهل العلم أن قصد المصلحة الدنيوية من عمل الخير، بعد تحقق قصد الامتثال لأمر الله، لا ينزل به عن درجة القبول، ويبين أن الإخلاص يرفع من شأن الأعمال حتى تكون مراقي للفلاح، وهو الذي يحمل الإنسان على مواصلة عمل الخير، ويبين أن الإخلاص هو الذي يجعل في عزم الرجل متانة، ويربط على قلبه، فيمضي في عمله إلى أن يبلغ الغاية..

---

(١) رسائل الإصلاح، ٧-١٣.

- الأمانة في العلم[1]:

يبين الإمام أن من تحدث في العلم بغير أمانة فقد مس العلم بقرحة، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة.. ويبين أن أمثال هؤلاء لا تجد الأمانة في قلوبهم مستقرًا، فلا يتحرجون أن يردوا ما لم يسمعوا أو يصفوا ما لم يعلموا، وهذا ما كان يدعو جهابذة أهل العلم إلى نقد الرجال.. ويبين أن الأمناء في علم الحديث اندس بينهم أشخاص: فمنهم الجاهل.. ومنهم المغلوب على رشده.. ومنهم الزنديق.. ويبين أن اللغة العربية نهض بها وبآدابها رجال طبعوا على الأمانة.. ويبين أيضاً أن اللغة العربية لم تخلص من أن ينتمي إليها نفر لا يتحاشون أن يدخلوا فيها ما ليس من حقائقها.. وانتقل إلى علم التاريخ، فبيَّن أن للتاريخ القسط الأوفر من اختلاف الرواة.. وبيَّن في ناحية المحرومين من نعمة الأمانة في العلم، أنه صدرت كتب وصفت كثيرًا من أفاضل السلف في غير إنصاف..

ويوصل الإمام ويقول: «إن الأمانة زينة العلم وروحه.. وإذا قلبت النظر في تراجم رجال العلم، رأيت بين العالم الأمين وقرينه غير الأمين بونًا شاسعًا، ترى الأول في مكانة محفوفة بالوقار، وانتفاع الناس منه في ازدياد، وترى الثاني في منزلة صاغرة، ونفوس طلاب العلم منصرفة عن الأخذ عنه أو متباطئة».

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٣-٢٢.

ويسوق الإمام دلائل على الأمانة فيقول: «إن أمانة العالم تدعوه إلى أن يقول: لا أدري، وهذا دلالة رسوخه في الأمانة، فلا تزحزحه العواصف قيد شعرة..

ومن مقتضى الأمانة أن تصدع بما استبان لك أنه الحق، ولا يمنعك من الجهر به أن تنسب إلى سوء النظر فيما رأيته سالفًا فما أنت إلا بشر.. والأمانة هي التي كانت تحمل كبار أهل العلم على أن يعلنوا في الناس رجوعهم عن كثير من آراء علمية أو اجتهادات دينية تبينوا أنهم لم يقولوا فيها قولاً سديداً.. وقد تخون الرجل ذاكرته أو تأخذه غفلة فيقع لسانه في خطأ، فينبه، أو ينتبه من نفسه إلى هفوته، فإن كان على حظ عظيم من الأمانة بادر إلى إصلاح خطئه بنفسه غير مستنكف من الاعتراف بما أخذه من ذهول قلب أو غلط لسان... ومن الأمانة الرجوع إلى الحق، وهو كمال لا تحرص عليه إلا نفوس ذللت لها سبل المكارم تذليلاً.. ومن الأمانة أن تنقد الآراء، ولا تغمض فيما تراه باطلاً، وإن كان بينك وبين صاحبها صلة الصداقة أو القربى.. ومن أمانة العالم أن لا يفتي أو يقضي بما يراه باطلاً، فحرام عليه أن يفتي أو يقضي برأي غيره وهو لا يتردد في بطلانه، ويبقى النظر في المسائل التي تعود إلى الاجتهاد، ولا يتعدى حكمها مراتب الظنون»..

- التعليم الديني في مدارس الحكومة[1]:

يبين الإمام نوعًا من الانحراف طرأ على الأخلاق، وأخذ يدب في نفوس النشء دبيب السم الناقع في جسم اللسيع، ويتصف هذا الانحراف بأنه ناشئ عن زيغ العقيدة، لا عن مجرد الأهواء الغالبة.. والانحراف الناشئ عن زيغ العقيدة أصعب علاجاً من الانحراف الناشئ عن طغيان الشهوة.. ولا مرية في أن انحراف الزائغين أظهر فسادًا، وأشد فتنة من انحراف الشاعرين بقبح ما يفعلون..

ولم يتفش زيغ العقيدة فيما سلف تفشيه اليوم؛ لأن وسائل ساعدت على سريان وبائه لم توجد قبل، وأمهات هذه الوسائل ثلاثة أمور:

أحدها: هذه المدارس، التي يفتحها الأجانب في أوطاننا باسم العلم..

ثانيها: تهاون بعض الآباء بواجب أبنائهم إذ يرسلون الناس إلى معاهد العلم بأوربا قبل أن يتلقوا من علوم الدين ما يجعل عقيدتهم مطمئنة..

ثالثها: أن كثيراً من الحكومات الإسلامية ضعف فيها روح الاعتزاز بالدين الحنيف.

ويقول الإمام: «وإذا رأينا في بعض المتلقين لعلوم الدين عوجًا، فذلك سنة الله في الخليقة أن لا تخلص الطوائف الكثيرة من أفراد يشربون بكأسها، ويظهرون في زيها، ثم هم شذوذ عنها»..

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٢٢-٢٨.

ويقول: «إن الأمم التي يقوم تعليمها على روح دينية قوية تبلغ من العظمة ما لا تبلغه أمة تساويها في غير هذه الروح من وسائل الحياة»..

- القضاء العادل في الإسلام[1]:

عنيت الشريعة بالعدل في القضاء عنايتها بكل ما هو دعامة لسعادة الحياة، فأتت فيه بالعظات البالغات: تبشر من أقامه بعلو المنزلة وحسن العافية، وتنذر من انحرف عنه بسوء المنقلب وعذاب الهون..

وكان قضاؤه ﷺ المثل الأعلى لصيانة الحقوق والتسوية بين الخصوم..

فقد رسم، عليه الصلاة والسلام، طريق العدل في القضاء قيمة غير ذات عوج، وزادها بسيرته العملية وضوحًا واستنارة، فاستبانت لأصحابه في أجلى مظهر..

وكان للإسلام وسيرة الذين أوتوا العلم من رجاله أثر في إصلاح القضاء كبير، ولا تشرق المحاكم بنور العدل إلا أن يمسك زمامها رشيد العقل راسخ الإيمان بيوم الفصل، فتقوى الله تحمل القاضي على تحقيق النظر في كل واقعة حتى يتعرف الحق..

وتقوى الله هي التي توقف القاضي في حدود العدل لا يخرج عنها قيد أنملة في حال.

ومن القضاة العادلين من تطرح بين يديه قضية يدلي فيها أحد الخصمين بشهادة الخليفة نفسه، فيرد الشهادة في غير مبالاة، فالإسلام يلقن القاضي

(١) رسائل الإصلاح، ٢٨-٣٨.

أنه مستقل ليس لأحد عليه من سبيل، وقد قص علينا التاريخ أن كثيرًا من القضاة العادلين كانوا لا يتباطؤون أن يحكموا على الرئيس، الذي أجلسهم على منصة القضاء حكمهم على أقصر الناس يدًا وأدناهم منزلة..

ومن القضاة العادلين من يرمي بالمنصب في وجه الدولة إذا أخذ بعض رجالها يتدخل فيما يرفع من خصومات..

والرئيس الناصح يكبر القاضي، الذي يأنس منه استقامة، ويعمل لإرضائه حتى يصرفه عن الاستقالة..

والرئيس العادل يعجب بالعالم، الذي دلته التجربة على استقامته عند الحكم وتجرده من كل داعية غير داعية ظهور الحق.. ولصعوبة القضاء من ناحية التثبت من الحق أولاً، والقدرة على تنفيذه ثانيًا، أبى كثير من العلماء الأتقياء أن يقبلوا ولايته، ورفضوها بتصميم يخشون أن يعترضهم في التنفيذ ما لا طاقة لهم بدفعه..

ومن العلماء من يأبى قبولها، ويكون الأمير ممن يقدر قدره ويراه أقدر أهل العلم على القيام بها، فيهدده بالعقاب أو يسومه العذاب؛ ليكرهه على قبولها، ومنهم من يقبلها بعد التهديد البالغ..

ولارتباط سعادة الأمة باستقامة القضاء جاز للرئيس الأعلى متى رأى في أهل العلم من هو أدرى بمسالكه، وأقدر على القيام بأعبائه أن يكرهه بالوسائل الكافية..

ومن العلماء من يطلب للقضاء فلا يجيب إلا على شرط يصعب على رجال الدولة قبوله، ولا يسعهم إلا أن يتركوه..

وعناية الإسلام بالقضاء رفعته إلى درجة أفضل الطاعات.. ولهذا ترى بعض العلماء يتقلدون القضاء ويأبون أن يأخذوا عليه رزقاً..

فالحقيقة أن الإسلام بنى القضاء على أسس محكمة ونظم صالحة..

فهذه نماذج لموضوعات ذكرها الإمام، رحمه الله، وهي صورة من موضوعات الإسلام، وأنموذج للطريقة الصحيحة التي تعالج بها الموضوعات، وتفض به المطالب، وتستوعب بها الجزئيات العلمية.

- المطلب الثاني: تحديد المقصود من موضوع المقال:

عني الإمام في «رسائل الإصلاح» بتحديد المقصود من المقال عناية بالغة، وكان ينفي تعرضه لكلام ليس من صلب موضوعه، ولا من مقصده، ولا مما يتصور القارئ وجوده، فكان يضع الصياغة العلمية ويبين تحتها المقصود منها. ففي مقاله عن «الإنصاف الأدبي» يقول:

«لا أريد أن أبحث تحت هذا العنوان عن الإنصاف الذي يفسر بالعدل. ويوصف به من ينتصب للحكم بين المتخاصمين، فقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا الموضوع في مقال: «القضاء العادل في الإسلام». كما أني لا أريد البحث عن الإنصاف الذي هو خلق يحمل صاحبه على أن يعطي الحقوق المادية من نفسه، كأن يعرف الرجل أن هذا المال أو المتاع حق لفلان، فيكف يده أو يرفعها عنه من تلقاء نفسه، لا يخشى

سطوة حاكم أو لومة لائم. فللحديث عن الإنصاف الذي هو تبرئة الذمة من الحقوق المادية مقام غير هذا المقام، وإنما الغرض البحث عن ضروب الإنصاف وهو أن يقول الرجل صواباً، فتعترف بأنه محق، أو يحرز خصلة حمد فتقر بها ولا تنازع من يصفه بها، ولا أجد مانعاً من أن أسمي هذا النوع من الإنصاف: «الإنصاف الأدبي»، ويقابله من الأخلاق المذمومة «العناد» وهو جحود الحق، ورده مع العلم بأنه حق»[1].

فالإمام ينفي عن الموضوع تعرضه لأمور قد يفهم القارئ من خلال الصياغة أن التعرض لها منسجم مع الصياغة ومتفق معها، لكن صاحب الصياغة العلمية يجد أن هذه الأمور لا تتفق معها، ومن ثم يبين غرضه في بداية بحثه ليكون الأمر واضحاً تمامًا عند القارئ، فمن المهم تحديد الموضوع، وإذا كان مطروحًا بصياغة لا تجعل المتعامل يحدد الفهم مما تريده، فعلى الباحث أن يحدد المقصد من وراء هذه الصياغة وما ينوي معالجته تحتها. وهذا ما كان في «رسائل الإصلاح».

وفي مقال صدق العزيمة.. أو قوة الإرادة يبين غرضه من هذه الصياغة فيقول: «وإذا تحدثنا في هذا المقال عن قوة الإرادة وذهبنا في حديثها مذهب خصال الحمد، فإنما نعني الإرادة المتوجهة إلى ما هو خير. ومن أفضل ما يمدح به الرجل أن يتوجه بعزمه القاطع إلى إظهار حق أو إقامة مصلحة»[2].

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٣٨.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/٦٥.

وفى مقال الدهاء والاستقامة يقول:

«ولا نقصد في هذا المقام إلى الحديث عن بعد النظر في إدراك العويص من مباحث العلوم، وإنما نقصد الحديث عن الدهاء من ناحية تقدير وسائل النفع والضرر، أو من حيث شعور صاحبه بما يحمل له من ضغن، أو ينصب له من كيد»[1].

فالإمام يبين مقصده من الموضوع، ومنهجه في بحثه، كي يعطي القارئ صورة صحيحة عن المعالجة، وعن إطارها وحدودها التي تلتزم بها، وهذا له صلته بالإصلاح من خلال تحديد أسسه ومنطلقاته، وتحديد أهدافه وأغراضه، أو الوصول إلى الهدف بالدعوة السديدة، والطريقة الرشيدة.

- تقييد الموضوع العام:

الإمام، رحمه الله، في تناوله المقالات العامة، التي تحتاج في تغطيتها إلى بحوث علمية متعددة يبادر إلى تقييد هذا الموضوع العام، وتحديد وجهة البحث فيه حتى تكون المعالجة في إطار هذا التقييد، وحتى يكون التصور للموضوع في ضوء تلك الفكرة.

ففي موضوع سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين يبادر الإمام إلى تقييد الموضوع وتحديد المعالجة فيه، فيقول:

«ولا أستطيع أن ألم في هذا المقال بما احتوته شريعته من النظم المدنية، والقواعد التي تشهد بأنه تشريع لم يكن للعواطف البشرية والعادات القومية

(١) السابق، ١/٩٠.

عليه من سلطان، فاكتفي بأن أصف لك ناحية يتمثل فيها عدل قضائه، ورفق سياسته، وسمو آدابه، تلك الناحية، هي أصوله في معاملة غير المسلمين»[1].

فموضوع سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين موضوع كبير، وتحته مادة علمية غزيرة، وجهد في وضع المادة فيما يناسبها، وتوزيعها فيما يتفق معها من أبواب وفصول، ولهذا يذكر الإمام الجوانب التي سيتناولها في موضوعه تقييداً له وتحديداً للمطلوب منه.

وفي موضوع المدنية الفاضلة في الإسلام، يقول الإمام:

«سنواصل بتوفيق الله القول في نصائح الدين، التي تأخذ بيد الجماعة إلى هضبة الشرف القصوى، ونقفي على أثر النصيحة بأخرى حتى يستبين لك أن الإسلام صُنْع الله الذي أتقن كل شيء. وإنما أذكر في هذا المقام خصالاً كالدعائم يقوم عليها صرح الحياة المدنية بهيَّ المنظر شامخ البناء، وما هذه الدعائم إلا العلم الصحيح والعمل النافع والخلق الرفيع»[2].

فالموضوعات العامة في الإسلام كثيرة جداً، ومعالجة الموضوعات العامة علمياً يحتاج إلى نوع معين من الباحثين من أهل التعمق والتشبع والقدرة الفائقة على استيعاب الفكرة والقيام بتغطيتها، ولذلك كانت الموضوعات العامة ليست متاحة لكل باحث، ولا يتمكن منها أي أحد بسهولة، فهي من السعة والعمق بمكان، وتحتاج إلى أصحاب فهم عميق ورؤية سديدة وتشبع

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١١٧.

(٢) السابق، ١/٥٥.

كامل بالقضايا الإسلامية، وأصحاب حاسة علمية، وملكة بحثية خاصة تؤهلهم لخوض هذه الموضوعات الكبيرة، فصاحب المواصفات الخاصة هنا يتعامل مع الموضوع بفهم واستيعاب لجميع مطالبه فيتعرض لما يستوجب التعرض، ويفصل ما يستوجب التفصيل، ويقيد ما يستوجب التقييد، ويمر بفكرة فيعمقها، وأخرى يعبرها إلى غيرها.

وهكذا يكون في النهاية الموضوع العام مخدوماً خدمة علمية أصيلة من أصحاب هذه المؤهلات الخاصة.

وأرى – والله أعلم – أن الأجدر بتناول هذه الموضوعات العامة محدودون جداً، ولهم باع طويل في خدمة الفكر الإسلامي وقضايا الدعوة، وما ينبغي على كل باحث أن يتهجم على هذه الموضوعات العامة فيغرق فيها، ولا يخرج منها بفوائد علمية محددة.

بل لزاماً على الباحث أن يسير في حدود قدراته، وأن لا يتخطى عامل الزمن والخبرات العلمية المكتسبة من كثرة القراءات والإطلاعات، وألا يتخطى أيضاً الأكفاء من العلماء، الذين لهم باع طويل في خدمة قضايا الإسلام. ومن ثم الأولى له أن يتناول فكرة محددة ومحبوسة في إطار بعينه لا يتجاوزه إلى غيره.

وأجد أن من المشقة على الباحث ذي الهمة والملكة العلمية والنظرة الدقيقة أن يتولى موضوعاً عاماً، فإنه يعيش صراعاً كبيراً بين إنهاء هذا الموضوع العام وسرعة الفصل فيه، وبين تجميعه له وإرادته تغطيته التغطية المناسبة

والمتكافئة مع صياغته، ولهذا كان من الراحة الكبيرة للباحث الجاد أن يعالج جزئية علمية دقيقة محددة يسعى إلى تلبية مطالبها، وتنظيمها فكرياً من كافة جوانبها، وجمع المادة العلمية المتعلقة بها واللازمة لها.

وفي الجانب الآخر من الجناية على البحث العلمي أن يتناول الموضوعات العامة من ليس أهلاً لها ولا جديراً بها، ومن ليست عنده مؤهلات ذلك، فيعرض الموضوع بصورة ساذجة، وبطريقة سطحية تشجع أعداء الإسلام على النيل منه، وتشجع أصحاب الثقافات المعاصرة على اتهام الثقافة الإسلامية بالمحدودية، وعدم العمق والثراء والاتساع.

ومن هنا يمكن القول: إن فئة تتعمد تسطيح الثقافة الإسلامية، واعتماد هذا التسطيح كمنتج ثقافي يعبر عن الإسلام الصحيح، ومن هنا تكون الضربة الشديدة للإسلام، التي تحتاج إلى من يتصدى لها من أصحاب الثقافة الواسعة، والرسوخ في العلم.

- الإشارة إلى معالجة الفكرة في مكان آخر:

الوعي بالعلم يقتضي من العالم أن يكون عالماً بما يكتب وألا يكرر نفسه، وألا يعرض ما عرضه من قبل، إنما يأتي بالفكرة الجديدة التي يعالجها المعالجة السليمة ويشبعها بالمادة العلمية اللازمة.

ومن العجب العجيب أن يدعي البعض قلة الأفكار الإسلامية ونضب المعين، فهذا من الأمور المستنكرة التي تأباها طبيعة الإسلام، فالإسلام دين

ثري بالأفكار غني بالقضايا ممتلئ بالموضوعات، ويلزم الجادين الغوص في أعماقه، والوصول إلى الدرر التي لا يصل إليها إلا أصحاب الهمم العالية.

فموضوعات الإسلام لا تنتهي، بل يلزم الباحثين الإتيان بالأفكار الجديدة التي تعبر عن حقيقة هذه الرسالة العظيمة، وتبرزها في آفاقها الواسعة، وأبعادها الكاملة، وعجبت من أحد الدعاة المشهورين بالخطابة المتميزة وهو يقول: «الحمد لله، لقد تكلمت في جميع الموضوعات»، وطرقت أبواب جميع القضايا، فأسفت أسفًا بالغًا على أن يكون هذا الفهم عند داعية له باعه الطويل في مجال الدعوة وله جماهيره العريضة في الأمة، ولو أنصف الإسلام وموضوعاته لعلم تماماً أن الموضوعات لا تنتهي، وأن الأفكار الجادة تتجدد بتجدد الزمان، وأن ما عرضه هو يعرضه غيره في إطار بعينه ومن وجهة علمية أخرى.

وهذه الرؤى العلمية تنعكس على الموضوعات بالثراء والنماء.

والإمام، رحمه الله، في معالجته للموضوعات يبين أن فكرة قد تمت معالجتها في موضوع كذا، أو أن فكرة تحتاج إلى تعميق أكثر وتوسيع أكثر في موضوع قادم، وهكذا يحيل الإمام الفكرة إلى موضوع بعينه قد تمت معالجته، أو يحيل الفكرة ويرجئ البحث فيها في موضوع آخر تتناسب معه وتتماشى مع أغراضه.

وهذا يدلل على وعي الإمام بما يكتب، وعلى معايشته أفكاره، وعلى أنها عنده بمكان، وأنه لا يقبل خدشها بتكرارها، ولا الإساءة إليها بافتعال وجودها وإقحامها في أي موضوع يتناوله.

ففي موضوع «ضلالة فصل الدين عن السياسة» يقول:

«وأما قيام أحكام الشريعة على أساس العدل، ورسمها للسياسة خططاً محكمة الوضع فسيحة ما بين الجوانب، فذلك ما لا أستطيع تفصيل الحديث عنه في هذا المقال، وفيما كتبناه ونكتبه إن شاء الله تعالى تحت عنوان: «الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان» ما يساعد على الإلمام بأصول الشريعة ومعرفة اتساعها لكل ما يحدث من الوقائع، والذي نقوله في هذا المقام: إن السياسة لا تجد في الدين ما يقف دون مصلحة، ولا تجد منه ما يحمل على إتيان مفسدة، لا تجد فيه هذا ولا ذاك، متى وزنت المصالح والمفاسد بميزان العقل الراجح، وكان القابضون على زمامها من حصافة الرأي في منعة من أن يطيش بهم التقليد، أو إرضاء طائفة خاصة إلى أن يروا الفساد صلاحاً فيشرعوه، أو يروا الصلاح في لون الفساد فينصرفوا عنه، وليس من شأن الدين أن يراعي فيما يشرع الأهواء الجامحة، وإن كانت أهواء الملأ الذين استكبروا، أو أهواء من في الأرض جميعاً»[1].

وفي موضوع المدنية الفاضلة في الإسلام يقول:

«وأما الأخلاق الشريفة، فإن الإسلام لم يدع مكرمة إلا نبه على مكانها، وندب على التجمل بحليها، وقد عني بمزايا هي أساس رقي الأمة وانتظام حياتها الاجتماعية: كالصدق، والأمانة، والعفاف، والحلم، والعفو، والتراحم، والعدل، وعزة النفس، والشجاعة، وحرية الضمير، والإقدام على قول الحق،

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٠٨.

وبذل المال في وجوه البر، وسنبحث في هذه المزايا ببسط القول وإقامة الشواهد في مقام آخر إن شاء الله»[1].

وفي موضوع سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين يقول:

«هذا أصل البحث في هذه المسألة، أما تفصيل المذاهب وبسط أدلتها فموضعه كتب الفقه وأحكام القرآن»[2].

فالمعالجة الجادة لا تتعامل مع الأفكار بسطحية، ولا تتعجل التحدث عنها، بل شأن الجادين أصحاب الأمانة العلمية أن ينفوا عن أنفسهم القدرة في التحدث عن فكرة لم يعطوا بعد أهلية التحدث عنها، ولم تكن من الوضوح في أذهانهم بحيث ينصفونها ويعرضونها بالصورة اللائقة بها.

والاحترام للقراء والأمانة في التعامل مع القضايا والأفكار أن تعطي الوقت المناسب للبحث وأن تبحث بموضوعية، وأن تنصف الفكرة العلمية بتغطيتها من كافة جوانبها.

ولهذا كان أصل الخلل في الميدان العلمي، هو التعامل مع الأفكار بسطحية، وعدم تعميقها وتأصيلها التأصيل السديد، فهذا هو منشأ الشبهات والآراء الفاسدة وتطاول الأقزام على حقائق الإسلام، وهذا ما بينه الإمام، رحمه الله.

---

(١) السابق، ١/٥٦.

(٢) السابق، ١/١٢٢.

«أما الفريق الذين ينكرون أشياء من صميم الدين فلم يجئهم الجحود من ناحية البحث الدقيق والنظر القائم على قوانين المنطق الصحيح، وإنما سبقت إليهم في التعليم أو في الجلوس ببعض الأندية آراء فتقبلوها، وتراءت لهم شبه فاعتنقوها، والآراء الفاسدة والشبه المغوية تربي في النفوس الضعيفة أذواقاً سقيمة، ويكون لهذه الأذواق الحكم العاجل، حتى إذا أنكرت حقاً خيل إلى أصحابها أن إنكارهم صادف محزاً وظلوا في جهالتهم يتخبطون، فقطع يد السارق أو السارقة مثلاً، قد تنازع في حكمته بعض الأذواق الخاصة، ولكن الأحكام إنما يراعى فيها المصالح العامة، وفي قطع يد هذا الصنف من المجرمين مصلحة سنأتي على بيانها في مقام غير هذا»[1].

فأصحاب الشبهات المثارة حول الإسلام، وأصحاب الفكر الثائر على أصول الدين وقواعده، غزتهم هذه المفاهيم من قلة البضاعة في الدين، ومن المعلومات الخاطئة التي أخذوها من أصحاب الثقافة المتناثرة والرؤى الموزعة، وأصحاب «أدلجة الإسلام» في اتجاه بعينه تحشد له النصوص، وتجمع له الأفكار، وتساق له الأذهان، ويغري بالوصول إليه بالمال والمناصب والأضواء.

وأصحاب الشبهات لو أنصفوا لطلبوا العلم من الراسخين، وأخذوه من المتخصصين، وجالسوا المراجع والمصادر العميقة، وكونوا ثقافة إسلامية رشيدة، ووقفوا على أرض ثابتة من الفهم السديد، والعلم الرشيد.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٩٩.

- المطلب الثالث: جودة التقسيم للموضوع:

إنصاف الموضوع ليس فقط في جودة المعلومات الموجودة فيه، وروعة النماذج والشواهد التي جاءت تحته، وأيضاً ليس في الطرح الفكري البحت، والاعتماد على الإنشاء المحض، والادعاء أن الأفكار الخاصة هي التي أصقلت الموضوع وزادته مصداقية وجاذبية.

فالبعض يعالج الموضوعات ذات المضامين الإسلامية معالجة فكرية بحتة بعيدة كل البعد عن ذكر الأدلة وسوق النماذج والإتيان بالشواهد، وجمع المادة العلمية من بطون الكتب ومن دقيق المصادر والمراجع.

فالمعالجة كلها أفكار من أفكار، وتعبيرات أدبية خرجت عن الأسلوب العلمي والعرض المنهجي، فإنصاف الموضوع ليس في هذا ولا في ذاك، إنما الإنصاف للموضوع في حسن تقسيمه، وحسن توزيع المادة العلمية عليه بكل عدل.

فالموضوع المقسم إلى عناصر، وتحت كل عنصر أدلته وشواهده، هو الموضوع الناجح، الذي يسد حاجة في الكتابة الإسلامية الأصيلة.

وكان هذا الأمر في المعالجة واضحاً عند الإمام، رحمه الله، حتى إنه يمكن الاكتفاء بهذه المعالجة وحدها للموضوع دون الرجوع إلى غيرها، وأنها تعطي للقارئ الخلفية السليمة وتغذي أفكاره بالمعلومات الصحيحة الثمينة.

بل إن الموضوع نفسه يجد المحاضر في المحاضرة العلمية أو الخطيب في خطبة جمعة أو الداعية في مؤتمر علمي يجد في هذا الموضوع ما يلبي حاجته

ويشبع نهمته، ويجده بالغ الذروة في الإقناع والإمتاع، وقد تميزت «رسائل الإصلاح» بالتقسيم العلمي وتنظيم الأفكار وترتيب المعالجة.

وعلى سبيل المثال موضوع «الانحراف عن الدين، علله وآثاره، ودواؤه» فالصياغة نفسها مقسمة تقسيماً منهجياً بالغاً، فالصياغة كشفت عن حقيقة معالجة الموضوع ببيان العلل والآثار والدواء.

وهذا ما التزم به الإمام في المعالجة، فما كانت المعالجة للموضوع بعيدة عن الصياغة، فهذا يقع فيه البعض ممن لا يتصور موضوعه تصوراً جيداً فلا يستطيع أن يلتزم بالصياغة الموضوعة له، فيضع الصياغة، ويتناول الموضوع بعيداً عنها.

ففي جانب علل الانحراف يجمل الإمام، وبعد ذلك يفصل فيقول: «النواحي التي يأتي من قبلها هذا الانحراف كثيرة، وجماعها الجهل والرعايات الباطلة. وإليك البيان»[1].

ويبين الإمام بعد هذا الإجمال علل الانحراف كاشفاً بيانه عن وعي بالدقائق وخبرة بالواقع، ودراية بتركيبة النفس البشرية.

وفي جانب آثار الانحراف يتكلم الإمام عن إصابة الناشئ بمرض الريب أو الجحود، الذي يجعله ينبذ الأدب الرفيع والعمل الرشيد.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٩٧.

ويتكلم عن التجارب، التي تفيد أن زائغ العقيدة متى ملك جاهاً أو سلطة فتن الأمة في دينها، وانتهك حرمات شريعتها..

وفي جانب دواء الانحراف جعله في عناية أولي الأمر بالتعليم الديني في المدارس، على اختلاف أقسامها وفنونها، ودفاع أهل العلم بأقلامهم عن الشريعة ممن يتساقطون على الطعن فيها أو المكر في تأويلها، وأخذ الآباء بهدي الله في صيانة أبنائهم عن المدارس المنشأة للصد عن السبيل(١).

ومن منطلق تجربة الإمام، يصقل الموضوع، ويعطيه عمقاً، وثراءً، فالتجربة في موضوعات معينة في الإسلام شرط لخوضها، ومدخل للإجادة فيها.

ومن أمثلة جودة التقسيم في «رسائل الإصلاح» موضوع: «أديان العرب قبل الإسلام» حيث تكلم الإمام عن بعثة الأنبياء إلى العرب ليهدوهم إلى الصراط، فذكر بعثة هود، عليه السلام، وما كان منه من موقف لا يهاب أهل الباطل، ولا يبالي بهم ولا بما هم فيه من قوة وطغيان، وبعثة صالح، عليه السلام، لثمود وعن دعوته وآية نبوته، وبعثة إسماعيل، عليه السلام، للعرب وإرساله بشريعة إبراهيم، عليه السلام. وبعثة شعيب، عليه السلام، إلى مدين وكانت منازلهم تجاور أرض معان بأطراف الشام فبعث الله إليهم شعيباً، عليه السلام، داعياً إلى التوحيد والإصلاح، وبعثته كانت بعد بعثة إبراهيم، عليه السلام.

---

(١) السابق، ١/٩٧-١٠٢ باختصار.

وتكلم الإمام عن الشرك في بلاد العرب، من نحو عبادة الأصنام ومظاهر تعظيمهم لها، وعبادتهم لبعض الأشجار، وبعض الحيوان، وعبادتهم الكواكب وعبادتهم للملائكة وعبادتهم للجن.

وتكلم عن البرهمية[1] في العرب حيث اشتهر دين البرهمية في سكان عمان، وتكلم عن دين الصابئة[2] في العرب، وتكلم عن المجوسية[3] في العرب، وتكلم عن الدهرية[4] في العرب، وعن اليهودية في جزيرة العرب وأثرها في العرب، وتكلم عن النصرانية في العرب.. [5].

وكان تقسيمه هذا موثقاً بالشواهد والأدلة والتعريفات الخاصة بأصحاب الفرق والمذاهب.

---

(١) البرهمية: من الناس من يظن أنهم سموا البراهمة لانتسابهم إلى إبراهيم، عليه السلام، وذلك خطأ.. وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له براهم، وقد مهد لهم نفي النبوات أصلاً، محمد بن عبد الكريم، الشهرستاني، الملل والنحل، ط١ (دار صعب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ٢/٢٥١.

(٢) الصابئة: «كانت تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه، إلى متوسط، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحياً لا جسمانياً.. »، الملل والنحل، ١/٢٣٠. وفي اللغة: صبأ الرجل إذا مال وزاغ؛ فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصائبة، الملل والنحل، ٢/٥.

(٣) المجوسية: «يقال لها الدين الأكبر والملة العظمى ... وكان لملوكهم مرجع هو موجز موبزان «يعنى أعلم العلماء، وأقدم الحكماء..»، الملل والنحل، ١/٢٣٠.

(٤) الدهرية: منكرو الخالق، والبعث، والإعادة. وقالوا بالطبع المحي، والدهر المفني...، الملل والنحل، ٢/٢٣٥.

(٥) رسائل الإصلاح، ١/٢٣١-٢٦١.

المبحث الثاني
التأثير في طريقة عرض المقالات
في رسائل الإصلاح، الجزء الأول

- المطلب الأول: حسن الابتداء وحسن الانتهاء من الموضوع:

المدخل للموضوع من الناحية العلمية هو باب الحكم عليه وسبب الإقبال على متابعته إلى نهايته، بل إن المدخل للموضوع هو عنوان صاحبه، فكاتب الموضوع إن كان مدخله إليه مدخلاً جيداً كان دلالة على سعة أفقه ونضج عقله، وإن كان بخلاف ذلك دل على ضيق أفقه ومحدودية إمكاناته.

والمدخل الجيد للموضوع يكون مستوعباً المحاور الفكرية له ومستجمعًا المنطلقات العلمية لكل معالجة فيه.

والمدخل الجيد يكون منصباً في جمع المتناثر وتوحيد المتفرق، ولمّ الشتات في أسلوب بديع وصياغة سليمة، وقدرة متميزة على الجمع والتوفيق بلا إشعار للقارئ بتكلف أو تصنع أو تشبع بلا مضمون، أو ادعاء بلا دليل.

ففي مدخل الإمام لموضوعه نجد هذا كله متوفراً، يبلغ العارفون بسببه حد الانبهار بالإمام والانجذاب إلى علمه من خلال مدخله للموضوع، هذا المدخل الثري بالفهوم الدقيقة، والغني بالأفكار السديدة، والممتلئ بكنوز العلم والمعرفة النفيسة.

في مدخله لموضوع صدق العزيمة.. أو قوة الإرادة، يقول:

«يخطر في النفس أمر فتثق بأنه حق أو نافع، فتحرص على حصوله، فإذا أضافت إلى هذا الحرص النظر في وسيلة بلوغها إياه، وبدا لها أنه في حدود استطاعتها، فسرعان ما تقبل عليه وتبذل سعيها للوصول إليه، وذلك ما نسميه بالعزم أو الإرادة.

فما يخطر في النفس مما تعتقد حقيقته أو نفعه، وتود أن يكون حاصلاً لديها ثم لا تسعى له سعيه، ولا تضع لبلوغه خطة، فإنما هو التمني الذي لا يفرق بين المحال والمستطاع، والذي يخطر في نفوس القاعدين كما يخطر في نفوس المجاهدين، وما مثله إلا كمثل الشرر الذي يلمع حول النار ثم يتصاعد هباء»[1].

فهذا المدخل الذي فيه تشويق لمعرفة الموضوع، وفيه تحديد للمفهوم، وتفريق بينه وبين غيره، وذكر الحالة التي عليها أصحاب الخيال الساذج والتصور القاصر، فيه دلالة على القوة في التأثير من خلال العلم والفقه وليس من خلال الدعاوى والتبلغ بالبلاغة.

وفي مدخله لموضوع: «سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين» يقول: «من يدرس أصول الإسلام بجد، ويذهب في تعرف روح تشريعه مذاهب بعيدة المدى، يدرك دون أن يأخذه ريب أنه دين نزل من السماء ليصرف بهدايته في أرجاء المعمورة، ويعلم الأمم أرقى نظم الاجتماع، وقد ارتفعت في الشرق

(١) رسائل الإصلاح، ١/٦٥.

والغرب رايته، يوم تولى أمره زعماء لبسوا من آدابه بروداً سنية، وتحروا في الدعوة إليه سبيلاً سوية»[1].

والإمام يقول ذلك بعد رحلة علمية، وتجارب نافعة، ومشاهدات رائعة، فكتابته على وفق قوله، وعمله على وفق علمه. فقد درس أصول الإسلام بجد وتعرف روح تشريعه، ووصل من خلال ذلك الثقة فيه، وفي قدرته على الرقم بالشعوب والأمم.

وفي مدخله لموضوع «الدهاء والاستقامة» يقول: «خصلتان يبلغ بهما الرجل أن يكون عظيماً، وحق لمن استولى على الأمد الأقصى منهما أن يكون زعيماً: هما بُعْد النظر في استكشاف غوامض الأمور، وذلك ما نسميه الدهاء أو الكياسة، والسير في سبيل الرشد بقلب سليم، وذلك ما نسميه الاستقامة أو التقوى»[2].

فالمدخل المتمثل في تحقيق العظمة من خلال خصلتين يؤثر في القارئ ويدعوه إلى العمل بهاتين الخصلتين، وتتبعهما، والعلم الكامل بما فيهما.

فجودة الفكرة عند الإمام تجعله يصونها من سوء العرض، ويحميها من التلبيس بغيرها من خلال الاعتناء بها في المدخل إليها، وهذا من دلائل حرص الإمام على تثبيت فكرة الموضوع في الأذهان، وعلى أن يكون هذا الموضوع تتلقاه الأجيال بالقبول في كل زمان ومكان، فهو لا يكتب لفترة زمنية بعينها،

---

(١) السابق، ١/١١٧.
(٢) السابق، ١/٩٠.

ولا يتعامل مع فكرة طارئة تعيش وقتاً وتنتهي بعده، ويتأثر بها البعض تأثراً سريعاً وينتهي الأمر إلى موتها وتلاشيها، إنما يتعامل مع فكرة خالدة يدرسها دراسة جيدة، ويتأمل فيها، ويهتم بها، وينظر كيف يقوم بعرضها، وهذا من شأن الصادقين مع الله تعالى، وأصحاب الرسالات والمبادئ.

ولهذا قيض الله لأفكار الإمام في كل زمان من يدرسها ويحللها ويعرضها للناس، وهذا من دلائل صدقه مع الله، فأفكار الصادقين لا تموت، وإنما تجد من يتلقاها ويتدارسها، ويعرضها للناس.

- جودة ختام الموضوع:

تتابع أفكار الموضوع وتتوالى المعالجة حتى يصل الموضوع إلى ختامه، فيكون الختام هو الدلالة على الوصول بالموضوع إلى أعلى درجات التوفيق بين الإقناع العقلي والتأثير الوجداني، فالختام هو مجمع الأفكار وملتقى الفهوم، وهو الذي يقع تحته مجمل الكلام ومنتهى البيان، وهو الذي يحرص فيه الكاتب على العبارة المحددة والأسلوب المباشر الذي يصل سريعاً إلى الفهوم وتحيط به العقول، فلم يعد الأمر محتاجاً إلى مزيد من بسط المعلومة بأكثر من أسلوب، وتقريب المفهوم بأكثر من مثال، إنما الأمر في الختام يكون في الكلمات القاطعة والعبارات الفاصلة والتي لا تعني إلا أمراً واحداً، ولا تجلي إلا مفهوماً واحداً، والخاتمة تخلو تمامًا من الشواهد والنماذج والأمثلة والنقول المختلفة، إنما هي فقط خلاصة الكلام، وزبد الأفكار، وصفوة المقال.

وهذا ما كان في وعي الإمام، رحمه الله، في «رسائل الإصلاح»، يقول في ختام موضوع الشجاعة وأثرها في عظمة الأمم:

«وخلاصة الحديث أن الأمة لا تحتفظ بعظمتها إلا أن تسود فيها الشجاعة، وأن عظمتها على قدر من تخفق عليهم رايتها من ذوي البطولة، فكان حقاً علينا أن نعنى في تربية أبنائنا بخلق الشجاعة الموصولة بالحكمة، حتى يروا العظائم صغائر، ويقتحموا الخطوب بعزائم لا يعرف التردد ولا الوهن طريقها».

فمن مقتضيات التخلق بخلق الشجاعة في ختام موضوع الإمام، رحمه الله، أنه سبيل احتفاظ الأمة بعظمتها، وأن السبيل إليه التربية عليه، وتخريج جيل شجاع ينهض بالأمة في جميع المجالات، وأن الشجاعة مقيدة بالحكمة، فلا تعني تسرعاً ولا تهوراً.

ويقول في ختام موضوع الغيرة على الحقائق والمصالح:

«وفصل القول في هذا أن الغيرة على الحق والمصلحة ما غلبت على نفوس الأمة إلا استقامت سيرتها، وعلت في الأمم سمعتها، وحسنت في كلتا الحياتين عاقبتها، ولا حق أجلى مما يدعو إليه الخلاق العليم، ولا مصلحة أعظم مما تهدي إليه أصول شرعه الحكيم، فإذا لم نرسم في نفوس نشئنا الغيرة على حقائق الدين، وما أرشد إليه من مصالح وما سنَّه من آداب ضلوا عن أسمى الحقائق، وأضاعوا أكبر المصالح، وتجردوا من أسنى الآداب، وهل غير هذه العاقبة من خسران مبين؟»[1].

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٧٦.

فالإمام يجعل الغيرة على الحق سبيل استقامة سيرة الأمة، وأن استقامة السيرة لا يحققه إلا الغيرة، فليس أمام الشعوب إلا أن تتصف بهذه الصفة الحميدة لتحقيق المصلحة التي هدت إليها أصول الشرعة، والإمام يجعل رسم الغيرة في نفوس النشء سبيل الوصول إلى أسمى الحقائق، والتجرد منها خسران مبين.

وفي مقالة المروءة ومظاهرها الصادقة، يقول:

«قد رأينا كيف انتظمت المروءة أخلاقاً سنية، وآداباً مضيئة، وعرفنا أن رسوخ هذه الأخلاق والآداب في النفس، يحتاج إلى صبر ومجاهدة ودقة ملاحظة وسلامة ذوق»[1].

فالإمام يبين في ختام موضوعه حاجة الأخلاق إلى بعضها، وتثبيت بعضها ببعضها، وثباتها في شخص الناس بمجموعها، وهذا يجعل الأخلاق جميعها محتاجاً إليها ومرغوباً فيها.

والإمام، رحمه الله، يختم موضوعه بهذا الختام مستخدماً هذا الأسلوب «وخلاصة الحديث»؛ و«فصل المقال»؛ و«صفوة الحديث»؛ و«خلاصة المقال»؛ « قد رأينا كيف..»؛ وهذا كله من جودة الختام ومن ثقة الإمام في أنه أعطى الموضوع حقه، ووصل به إلى تمامه وكماله، ووفّى أغراضه، وقام باستيعابه من كل جوانبه.

---

(١) السابق، ١/٩٠.

- المطلب الثاني: سوق الأمثلة على الفكرة العلمية:

تميزت «رسائل الإصلاح» بكثرة الأمثلة والشواهد على الفكرة العلمية، ومن ملامح ذلك:

- البراعة في سوق المثال:

الجزئية العلمية في «رسائل الإصلاح» مشبعة بالأمثلة التي توضحها من كل جوانبها، وتجليها بجميع أبعادها. بل من مميزات «رسائل الإصلاح» كثرة الأمثلة والشواهد والأدلة على جميع ما ذكر فيها من جزئيات علمية.

وهذه الأمثلة المساقة فائقة بصورة تدعو إلى قراءتها بلذة ومتعة حتى إنها تستدعي من القارئ التفاعل معها من خلال ملامح التأثير عليه من بسمة ودهشة وكلمة تخرج بصورة عفوية دلالة على قمة التفاعل والتجاوب مع هذه الأمثلة وتلك النماذج. وهذا يدل على صدق الإمام والقدرة على انتقائه للأمثلة، وخبرته في سوق النماذج المدللة والوقائع الشاهدة، ومن ذلك مثاله على لذة العلم والراحة به، والنشاط والقوة بسببه.

«حضر الشريف التلمساني[1] وهو صبي درس الأستاذ أبي زيد بن الإمام، فذكر أبو زيد نعيم الجنة، فقال له الشريف: هل يقرأ في الجنة العلم؟

---

(١) الشريف التلمساني (٧١٠-٧٧١ هـ/١٣١٠-١٣٧٠م) محمد بن أحمد بن علي الإدريسي الحسني، أبو عبد الله العلويني، المعروف بالشريف التلمساني: باحث من أعلام المالكية، انتهت إليه إمامتهم بالمغرب، الزركلي، الأعلام، ٣٢٧/٥.

فقال أبو زيد: نعم، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فقال الشريف: لو قلت لا، لقلت لك لا لذة فيها، فعجب منه الشيخ ودعا له»[1].

فالأفكار حول نعيم الجنة تختلف من إنسان لآخر، فيفكر بعضهم في المتاع المادي، ويفكر آخرون في المتاع المعنوي، وهذا ليس تقليلاً من التفكير في المتاع المادي، فهو من أنواع الجزاء في الجنة، وتتعلق به الأفكار والهمم.

- التوضيح للفكرة بأكثر من مثال:

الفكرة في «رسائل الإصلاح» مشبعة بالشواهد المتتابعة التي تجليها وتظهرها على أوفى ما يكون، والشواهد المساقة للفكرة ليس فيها تكرار، إنما كل شاهد موضوع لأمر معين تحت هذه الفكرة مما يجعل الفكرة موزعة على أمور لكل أمر منه شاهد بعينه يبرزه ويجليه وينضم مع جميع الأمور مجلياً الفكرة على أوفى ما يكون، ومثال ذلك:

موضوع الإخلاص، فيه توضيح بالأمثلة على كل جزئية، من ذلك:

قصد المصلحة الدنيوية من عمل الخير، بعد تحقق قصد الامتثال لأمر الله، لا ينزل به عن درجة القبول.

كأن يقصد من رحلته التجارة مع قصد أداء فريضة الحج، أو يقصد التبرد بعد قصد التطهر بالماء لأداء فريضة الصلاة.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٥.

أو يقصد التلذذ بالعلم بعد أن يقصد الوجه، الذي اقتضى أمر الشارع بدراسته[1].

- تكرار بعض الأمثلة:

تكررت بعض الأمثلة في «رسائل الإصلاح»، وهذا ليس أصلاً في الرسائل إنما هو أمر نادر، ومثال ذلك: «كان السلطان سليم[2] أمر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزائن، فبلغ ذلك الشيخ علاء الدين الجمالي[3]، فدخل على السلطان وقال له: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعاً، فعليك بالعفو عنهم، فغضب السلطان سليم، وقال للشيخ: إنك تعرض لأمر السلطنة، وليس ذلك من وظيفتك. فقال: لا، بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت سورة الغضب في نفس السلطان، وعفا عن أولئك الرجال الذين كان قد أمر بقتلهم»[4].

---

(١) رسائل الإصلاح، ٩/١.

(٢) السلطان سليم: «تربع السلطان سليم الأول على العرش العثماني في عام (٩١٨) هـ وقد أظهر منذ بداية حكمه إلى تصفية خصومه... ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم..»، في أصول التاريخ العثماني ص٧٦، أحمد عبد الرحيم مصطفى، نقلاً عن: علي الصلابي، الدولة العثمانية، ص٢٣٩.

(٣) علاء الدين علي بن أحمد بن محمد الجمالي، من فقهاء الحنفية. الشقائق النعمانية، ١٧٣/١.

(٤) رسائل الإصلاح، ٥١/١، ٢٢٤.

هذا المثال ورد في مقالة العلماء والإصلاح، وورد في مقالة العلماء وأولو الأمر، وبين المقالتين ترابط مما يجعل تكرار هذا المثال مستساغاً ومنسجماً مع ما جاء في المقالتين من مقاصد.

وهو يبين حرص العالم على آخرة الحاكم، وعلى جرأته في الحق، وعلى إيجاده المدخل المناسب لردع الحاكم وزجره، وهو تعرض العالم لأمر آخرة الحاكم، وهو المدخل الذي يتلقاه الحاكم بالقبول، ويكون عند الحاكم قدر من الوعي، الذي يجعله يتقبل كلام العالم، وفي نفس الوقت يعين العالم على تأدية الأمانة، وتبليغ الرسالة.

- عدم ذكر جميع الأمثال:

بالرغم من الشواهد الفائقة إلا أن الإمام يبين أن ذكر الأمثلة كلها ليس من مقصده، إنما هو يذكر ما يظهر المعنى ويفي بالغرض.

«ولو أخذنا نضرب الأمثال على أن التعليم الديني يطبع النفوس على خصال الشرف، ويملؤها هماً لا تقف عند حد، وغيرة لا تلهو عن حق، لملأنا صحفاً كثيرة أو أسفاراً، ولكن المقام للتذكرة، ومن مقامات التذكرة ما يغني فيه الإيجاز عن الإسهاب»[1].

فالإمام يبين الثروة في الأمثلة المتعلقة بالموضوع ويصفها بملئها الصحف والأسفار، وهذا في حد ذاته يدلل على سعة المعرفة عند الإمام، والرسوخ العلمي في الإتيان بالأمثلة الكثيرة.

---

(١) السابق، ١/٢٤.

- الاستشهاد بالشعر:

يستدل الإمام على أفكاره بأبيات الشعر، تلك الأبيات المعبرة عن الفكرة تماماً، والموصلة لمعنى يأتي البيت فيجليه بصورة أكثر توضيحاً وتحديداً، ومهما كانت العبارة فائقة، والأسلوب رائعاً في تحديد المعنى المطلوب، لكن بلا شك بيت الشعر له جاذبيته، وتأثيره في العقول والنفوس.

وهذا ما كان واضحاً في مقالات الإمام، رحمه الله، وهذا يدل على كثرة المحفوظات الشعرية والأدبية للإمام، وعلى تميز دراسته وإفادته منها الإفادة الكاملة، وعلى عدم تأثره بالمناخ الذي عاش فيه حياته العلمية الأولى، الذي لا يؤهل طالباً أن يكون صاحب ذوق أدبي.

وأيضاً يدلل على قدرة الإمام، رحمه الله، على وضع المعنى المناسب من خلال البيت الشعري، الذي ينطبق تماماً على المعنى، وهذا يدل على الفهم الثاقب والذهن الصافي والذكاء البارع.

ومن الأمثلة على ذلك مقال الشجاعة وأثرها في عظمة الأمة، فغالب الأدلة في هذا المقال من الأبيات الشعرية، وأيضاً مقال الحلم وأثره في سعادة الحياة الفردية والاجتماعية، فالأبيات الشعرية فيه ملحوظة، لكنها ليست بحجم الأبيات في مقال الشجاعة.

- المطلب الثالث: الطريقة الدعوية المؤثرة في العرض:

الكتابة المؤثرة هي التي تتوفر فيها عوامل التأثير في النفوس، من مخاطبة الوجدان، ومن تحريك الأفهام، ومن إثارة المشاعر والعواطف، ومن أساليب الحض والحث وأساليب التنفير والتحذير، ومن طريقة العرض، ومن التمهيد، ومن المدخل والختام، ومن الترغيب والترهيب، كل هذا وغيره من شأنه أن يؤثر في القارئ وأن يحرك وجدانه، وأن يهيئ له مناخ التفاعل مع الفكرة، التي يراد سيادتها في الأذهان وتملكها الأفهام، وتحويلها إلى واقع عملي وسلوك ملموس.

وفي المقابل هناك كتابات جافة غير مؤثرة افتقدت هذه العوامل فلم تحرك قلباً، ولم تهذب نفساً، ولم تقوّم طبعاً، بل كانت عبئاً على المكتبة الإسلامية وضيفاً ثقيلاً على موائدها.

والعبرة في الكتابة كيفها وليس كمها، فكم من الكتب صدرت، وكم من المؤلفات نشرت، لكنها ليست شيئاً، ووجودها كعدمها، ولا تعلق بالأذهان، ولا تحتل مكانتها في الذاكرة الإنسانية، في حين أن هناك كتباً أخرى بقيت آثارها، ولم تسقط من ذاكرة الأجيال المتتابعة، وحفظت مكانها في المكتبة الإسلامية كمراجع أصيلة للباحثين في كل وقت وحين.

فالكتاب الذي يعيش هو المكتوب بحب وعاطفة والذي اجتمعت فيه عوامل التأثير، فهذا الكتاب الذي تتحرك كلماته أمام الأعين، ويلمس

القارئ صدق الكاتب وإخلاصه من وراء ما كتب وأخرج من أفكار عميقة ورؤى ثمينة.

وكانت «رسائل الإصلاح» من تلك الكتب، التي توفرت فيها عوامل التأثير، ونالت من المعنيين كل ألوان الإعزاز والتقدير، ومن سبل التأثير في «رسائل الإصلاح» ما يلي:

- تعميق الفكرة من خلال طريقة الدعوة:

الفكرة في «رسائل الإصلاح» عني بها الإمام عناية بالغة، فأخذ يعرضها في قوالب عدة حتى يتسنى لها القبول، وليس هناك أجمل ولا أكمل من طريقة الدعوة في عرض الفكرة، فكان الإمام يعرض الفكرة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب وتارة بالمزج بينهما وبالخلط بين الرغبة والرهبة، ومن ذلك مقاله عن القضاء العادل في الإسلام.

يقول: «عنيت الشريعة بالعدل في القضاء عنايتها بكل ما هو دعامة لسعادة الحياة، فأتت فيه بالعظات البالغات: تبشر من أقامه بعلو المنزلة وحسن العاقبة، وتنذر من انحرف عنه بسوء المنقلب وعذاب الهون»[1].

ومن ذلك مقاله عن المروءة ومظاهرها الصادقة:

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٢٩.

يقول: «خصلة رفيعة القدر، تجري في منشآت الأدباء ويتحدث عن معناها في علوم اللغة والشريعة والأدب والأخلاق تلك الفضيلة هي: المروءة»[1].

- الإعلان عن العاطفة والتأكيد عليها:

من سبل التأثير الإعلان عن عاطفة الكاتب من أنه المحب للدعوة، والمرجح لمصلحة الأمة، والناصح الأمين، والمشفق على المسلمين، وغير ذلك من سبل ترجمة العاطفة والإعلان عن المشاعر وصدق الأحاسيس، وليس هذا فقط إنما التأكيد على سمو العاطفة وصدق الأحاسيس بنسبة العلم إلى الله في صدق أحاسيسه، وهذا فيه ما فيه من تحقيق التوافق الوجداني بين الكاتب والقارئ، وكان هذا موجوداً بصورة ملحوظة في «رسائل الإصلاح».

«ونحن نود والله يعلم أن يقبل كل من بيده قلم على ما فيه خير للناس، والموضوعات العلمية والأدبية والسياسية مترامية الأطراف، وانصراف نفس الكاتب عن البحث في أمثال هذه الموضوعات ليس بعذر يبيح له أن يخوض بقلمه في الحديث عن الدين خوض من يقولون ما لا يتدبرون.

---

(١) السابق، ١/٢٠٨.

ونود والله يعلم أن نقبل على شأننا، ونمضي في سبيلنا، وليس في فطرتنا الولوع بأن نفند لكاتب رأياً، أو نبطل لباحث قولاً، ولكن القوم أصبحوا يتساقطون على طمس معالم الحقيقة والفضيلة تساقط الفراش على السراج، والسكوت عنهم تفريط في جنب الله، ومن فرط في جنب الله خسر الدنيا قبل الآخرة»[1].

فتكرار الإمام الإعلان عن العاطفة في مقام واحد، وتأكيده هذا بنسبة العلم إلى الله دلالة واضحة على الرغبة في ذلك، وأن من المقاصد إشعار القارئ بأحاسيس الكاتب وصدق مشاعره وسمو عواطفه.

لكن مع هذا لابد من العلم أن التكلف في العاطفة والإفراط فيها خروج عن الاعتدال، وعدم التزام بالقدر الذي إن زاد عن حده انقلب إلى ضده، فالتكلف منبوذ بالطبيعة، والافتعال مرفوض بالفطرة والسليقة، وأيضاً المشاعر الصادرة لغة حية، وإن لم ينبه عليها، ويلفت النظر إليها، فالشعور الصادق يصل إلى الأحاسيس والوجدان بقدرة من الله عز وجل، الذي بيده مفاتيح القلوب.

وأيضاً الجوانب الوجدانية في العرض لن تجور على الجوانب العلمية، ولا تؤثر في قواعد البحث السليم، ولا يتخذها الكاتب تكأة لتمرير

---

(١) السابق، ١/١٠٤-١٠٥.

القصور الواضح في البحث، وعدم توفية مطالبه، وتغطية جوانبه، ولا يعتمد على هذا أيضاً لتغطية جوانب الضعف في شخصيته العلمية مستغلاً الجوانب العاطفية والوجدانية عند المتعاملين مع منتجه العلمي والثقافي.

- إثارة الخير في المتلقي:

إثارة الخير من السبل المهمة في مساندة الفكرة وتدعيم المنهج وإخراج القدرات الفاعلة، والمواهب الفائقة من المتلقين. وفي المتلقي جانب مهم لابد أن يعيه الكاتب أولاً، وهو وجود الخير فيه، ولا بد من طريقة إخراج هذا الخير أن يعطيه الكاتب الثقة فيما لديه، وأن يطمئنه على مكانته الخاصة، وأنه يحظى عند المصلحين بالدرجة والمرتبة، وليس منسياً ولا ساقطاً من الحسبان ولا موضوعاً في سلة الإهمال أو زاوية النسيان.

يقول الإمام: «قد يوجد في أفراد البشر من يولد في بيئة عفاف وحكمة، وتتولاه يد التربية الحازمة بالتنبيه لمواقع الهنات، فتكون سيرته كالسبيكة الخالصة لا يجد فيها الناقد مغمزاً»[1].

ويقول: «هذه كلمة نوجهها إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، لعلهم يجدون فيها تحقيق الفرق بين محاكاة الأجنبي المحمودة ومحاكاته المنبوذة

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٤٨.

فيسلكون طريقاً وسطاً يكفل لهم سعادتي الأولى والآخرة: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ (الأحزاب: ٤)»[1].

وعندما تجد النفوس البشرية هذه الطريقة في التعامل فإنها تعلن عن نفسها، وتظهر للمجتمع كله خيرها، وما كان هذا إلا بالكتابة الحكيمة والطريق البديعة، والرؤية السليمة.

- الإشارة إلى رقي الفكرة:

من سبل جذب المتلقي الإعلان عن الفكرة والإشادة بها، والتشويق إليها، وإشعار المتلقي أنها ذات درجة، ويلزمه أن يتعرف عليها وأن يتابع عرضها خطوة خطوة، يقول الإمام:

«يذكر الكتاب والخطباء تقليد المسلمين للأجانب، ومنهم المسرفون في الدعوة إلى التقليد، ومنهم الراشد، وإليك كلمة تعرض عليك الرأي الذي يقف عند حدود الدين، ويرعى حق القومية، ويقدر المصالح ويحرص على أن لا يفوت الأمة منها مثقال ذرة»[2].

والقارئ عندما يعلم أن المصلحة التامة هي التي عرضها الكاتب لا يفوته الإطلاع على زوايا هذه المصلحة والوقوف طويلاً عندها.

---

(١) السابق، ١/١٤٥.

(٢) السابق، ١/١٤٩.

ويقول صراحة: «عليك الإنصات وعلينا البيان»[1].

وهذا من حرص الكاتب على شد اهتمام القارئ وجذبه إلى الكلام بكل طريقة، ويتحقق بهذا ضمان عدم ابتعاد القارئ عن الفكرة في كل خطوة من خطوات عرضها، وفي كل زاوية من زوايا طرحها.

- ذكر الانعكاس على الجماعة:

تذكر «رسائل الإصلاح» الانعكاس على الجماعة في الجانب الحسن أو في الجانب السيئ ليدرك كل فرد مدى نفعه إن التزم وضرره إن انسلخ.

«والجماعة التي تفقد هذا الخلق تفقد جانباً عظيماً من أسباب السعادة، ويدخلها الوهن بعد الوهن، حتى تتفرق أيدي سبأ»[2].

- توجيه الخطاب المباشر للقارئ:

يتوجه الكاتب بالكلام مباشرة للقارئ، حتى تصل للقارئ رسالة من خلال هذا التوجه، وحتى يصل للقارئ معنى أن الكاتب يوجه إليه الكلام بشخصه، وأنه المقصود تحديداً بهذا الخطاب.

يقول، رحمه الله: «وقلة الإنصاف تسقط احترامك من العيون، فإن من يراك تهاجم الآراء المؤيدة بالحجة، قد يحمل هنا الهجوم على قصر

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٤٩.

(٢) السابق، ١/٣٨.

نظرك.. قلة الإنصاف تسقط احترامك من القلوب، والإنصاف يزيد احترامك في القلوب مكانة...»[1].

ويقول، رحمه الله: «وإذا لم ينصفك الرجل، فرد عليك الحق بالشمال واليمين أو جحد جانباً من فضلك وهو يراه رأي العين، فلا تكن قلة إنصافه حاملة لك على أن تقابله بالعناد، فترد عليه حقاً أو تجحد له فضلاً، واحترس من أن تسري لك من خصومك عدوى هذا الخلق الممقوت، فيلج في نفسك»[2].

فقد اتخذت «رسائل الإصلاح» وسائل للتأثير في القارئ، وجذبه إليها، وإشعاره بالحرص عليه، والتمسك بإصلاحه وتهذيب خلقه، وتقويم طبعه، وجعله مقصداً من مقاصد تلك الرسائل، وإنه إن استوعبها تحققت المقاصد بضمه في صفوف المصلحين.

---

(١) السابق، ١/٤٠.

(٢) السابق، ١/٤٦.

الفصل الثالث
الإصلاح من خلال تربية النشء على العبقرية خلقاً وعلماً

المبحث الأول
التربية على الدهاء في الحق والإنصاف الأدبي

- المطلب الأول: الكياسة والفطنة:

تمتع النشء بالموهبة الفكرية والعقلية، واستمراره على تلك الموهبة وسعيه الدائم لتنميتها وتحسينها وتجويدها يجعله متمتعًا بالحكمة التي لا يشترط فيها سن.

يقول الإمام: «ومتى كان الدهاء - أعني جودة النظر في سياسة الأمور وتقدير وسائل الخير - عائداً إلى الألمعية، وهي في أصلها موهبة إلهية، فإن التدبر في سير أعاظم الرجال والنظر في مجاري الحوادث باعتبار، مما تقوى بهما خصلة الدهاء، فمن حق الملقى إليهم بتربية النشء من أوليائهم ومعلميهم أن يصرفوا العناية إلى تغذيتهم بالحديث عن دهاة الرجال وتنبيههم لما دبروه من وسائل يبتغون بها إصلاحاً أو شرفاً، ومن حقهم أن يلاحظوا

الحوادث التي تظهر من ناحية عرفت بالدهاء فيكشفوا غطاءها، ويقفوهم على بطائنها»[1].

فالدهاء وتقويته في النشء من جوانب التربية الصحيحة، وهذا يتطلب فهم التقوى في حقيقتها، فهي ليست انعزالية عن الحياة، ووداعة مفرطة وسماحة متناهية، إنما التقوى وعي كامل، وتصور شامل، وإدراك للموقف، ووزن له، ووضع الأشياء في مواضعها، وفهم الأمور على حقيقتها، وعدم السماح لأصحاب الأهواء بالخداع وتحقيق مآربهم الخبيثة وأهدافهم الخسيسة.

«وتكون هذه التنشئة عن طريق ذكر نماذج لأصحاب الجودة في السياسة والنظرة في الأمور، وأيضاً من خلال تحليل المواقف تحليلاً دقيقاً من أجل استخراج ما يربي الفطنة والكياسة، والدقة في كل شيء عند النشء»[2].

قال معاوية بن أبي سفيان ﷺ: «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني»[3].

---

(١) رسائل الإصلاح، ٩٦/١.

(٢) السابق، ١٤٩/١.

(٣) تاريخ دمشق، ١٧٣/٥٩، ابن عساكر؛ تاريخ اليعقوبي، باب وفاة الحسن بن علي، ٢٠٤/١؛ عيون الأخبار، باب التعريف بعبد الملك للسياسة، ٤/١.

فالمسلم يتصرف التصرف اللائق، ويتعامل مع الموقف التعامل المناسب، ويكون متدرجاً من اللسان إلى السوط إلى السيف، ولا يتعجل في التصرف واتخاذ الموقف فيكون الخبط والخلط.

والتصرف اللائق بالموقف لا يشترط له سن بعينه.

فشاب صغير في السن يتمتع بحكمة ينال بها الأفضلية عن شيخ كبير تطيش تصرفاته هنا وهناك، ولا يعمل حساباً لمواقفه، ولا يبالي بعواقب أمره.

فالموهبة الفكرية والعقلية تضيف للنشء حياة إلى حياتهم، وعمراً إلى عمرهم، وتعطيهم التجارب والخبرات، وبها يتصرفون التصرفات الموفقة السديدة.

والتربية على الدهاء تخرج جيلاً قادراً على حمل الأمانة وتأدية الرسالة، «ذلك لأننا نريد أن نعد للمستقبل ناشئة تستقيم على هدى الله، وتخوض لجج الحياة بكياسة تبصر بها مواقع الشر والخير، فتسعى إلى أن يكون الشر بعيداً منها والخير طوع أيديها، وعلى قدر ما يكون في دعاة الشعب وقادته من دهاء وتقوى، يبعد في سبيل الشرف شأوه، وتثبت في مواقف الجهاد قدمه، ويرقى في السماء ذكره، والذكر الذي تحوطه التقوى ويحرسه الدهاء لا يخفت صوته إن شاء الله»[1].

فمستقبل الإسلام يكون على يد جيل مربى على الحصافة والفطنة، والجرأة على اتخاذ المواقف المناسبة، وإدارة الحياة إدارة جيدة، وإتقان الأشياء من كل جوانبها.

---

(١) رسائل الإصلاح، ٩٦/١.

- المطلب الثاني: التربية على الإنصاف والمروءة:

من مهام المربين: تربية النشء على تكوين شخصيتهم، وتشكيل عقليتهم، والتمهيد للدفع بهم قادة للمجتمع. ومن ذلك:

- ترسيخ الإنصاف الأدبي:

الإنصاف عزيز، وطريقة الوصول إليه لابد من تعلمها حتى يتصف العلماء بهذا الخلق الفاضل.

«والإنصاف الأدبي من الخصال التي لا ترسخ إلا في نفس نبتت في بيئة صالحة، وارتضعت من ثدي التربية الصحيحة لبناً خالصاً»[1].

وهذا يعني أن الإنصاف الأدبي يتحقق من خلال البيئة الصالحة والتربية الصحيحة.

فالبيئة عامل مهم في تحقيق خلق الإنصاف، فلابد أن يكون المناخ المسيطر مساعداً، والظروف المحيطة مناسبة، وأن يكون المحيطون بالإنسان مشجعين له ومحببين إليه الإنصاف.. وعامل التربية على الإنصاف من العوامل المهمة، وهذا العامل يحتاج إلى مربيين أكفاء، وناصحين أمناء، يعنون بالنشء ويتابعونه خطوة بخطوة حتى يصلوا بهم إلى الكمال في كل شيء.

«فمن أراد أن يطبع ناشئًا على خلق الإنصاف نقب على علَّتي الحسد والغلو في حب الذات، فإن وجد لهما في نفس الناشئ أثرًا، راوضه بالحكمة

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٣٨.

والموعظة الحسنة، حتى يتهيأ الناشئ لأن يكون على هذا الخلق العظيم، أعني خلق الإنصاف.

وإذا كان منشأ الحسد قلة ملاحظة أن النعمة تصل إلى صاحبها من علام الغيوب، وهو لا يرسلها إلا لحكمة، فإن من وسائل علاج هذا الداء تلقين الناشئ أن النعم المادية أو الأدبية إنما ينالها الناس بمشيئة العليم الحكيم، وإذا كان منشأ الحرص على الانفراد بالفخر هو الغلو في حب الذات، كان على المربي تهذيب عاطفة حب الذات في نفس الناشئ، حتى تكون عاطفة معتدلة: تجلب له الخير، وتأبى له أن ينال غيره بمكروه، وإذا شفي الناشئ من مرض الحسد، وخلص من لوثة الغلو في حب الذات، لم يبق بينه وبين فضيلة الإنصاف إلا أن تعرض عليه شيئًا من آثارها الطيبة، وتذكره بما يدرك المحرومين منها والمستخفين بها من خسار وهوان»[1].

فهذا تفصيل وتأصيل يشفي العليل، وينفع المربين في طبع النشء على الخلق الأصيل، وفي هذا الكلام تحليل شاف للوصول بالنشء إلى الكمالات في الأخلاق عموماً، وفي الإنصاف خصوصاً، وذلك عن طريق الخطوات التالية:

- تفتيش المربين في نفوس النشء عن العلل الدفينة والأمراض التي تنطوي عليها القلوب، وتحديد هذه الأمراض ووضع المنهج المناسب في علاجها.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٣٩.

- علم المربي بأخطر علتين يفسدان النشء: علة الحسد، وعلة الغلو في حب الذات، وكلاهما يهدف إلى إلغاء الآخرين وعدم الاعتبار بهم، وهذا ينزع الإنسان من المجتمع ويجعله بعيداً عن الاحتكاك الإيجابي، والتأثر بالعلاقات والصلات الفاضلة.

- الوقوف بالمرصاد لأعداء المواهب والملكات، ولهذا لا يكون هناك صاحب موهبة على الإطلاق حتى يصارع أبناء المجتمع من أجل تحطيم مواهبه وقتل ملكاته، وهو في مقابل هذا لا يستسلم، ولا يرضى بتضييع جهده وإهدار تعبه في تكوين خلقه.

- علاج الأمراض بهدوء وحكمة، وفي هذا دلالة على أن المربي أحوج إلى النشء من حاجة النشء إلى المربي، وهذا من أجل أن يتم التواصل على طريقة التربية والإصلاح.

- الإنصاف في علاج الحسد يكون بالتذكير بالنعم والآلاء، والإحساس بقيمتها، ولهج الألسنة بشكرها.

- الإنصاف في علاج حب الذات يكون بالاعتدال في الحب، وعدم الزيادة عن الحد، فيكون الحب مصلحة للعبد ولغيره.

- سعي المربين إلى علاج العلل النفسية، وتهيئة المحل لاستقبال خلق الإنصاف من خلال بيان فضائله وذكر محامده، وآثاره الطيبة على الفرد والمجتمع.

- **التربية على المروءة:**

من واجبات المربي: تفقد المروءة في كيان النشء، وعدم السماح بتسرب مظاهر الخمود، وألوان الركود، وهذا يحتاج إلى يقظة المصلحين الدائمة لأحوال النشء من أجل التسديد والتصويب.

يقول الإمام: «قد رأينا كيف انتظمت المروءة أخلاقاً سنية، وآداباً مضيئة، وعرفنا أن رسوخ هذه الأخلاق والآداب في النفس، يحتاج إلى صبر ومجاهدة، ودقة ملاحظة، وسلامة ذوق، فحقيق بنا أن نربي أبناءنا على رعايتها منذ عهد التمييز، حتى لا تسبق إليهم أخلاق غير نقية، وعادات غير رضية، فتحول بينهم وبين الفضائل، فلا تجد المروءة إلى نفوسهم مدخلاً:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً

فمطلبها كهلاً عليه عسير[1]

نربي أبناءنا على ما يثبت قواعد المروءة، ويرفع بناءها، ليحمدوا أبوتنا، ويكونوا قرة أعين لنا، وأسوة حسنة لأحفادنا، وزينة لأوطاننا، وليفوزوا بالعزة في الدنيا والسعادة في الآخرة»[2].

فتثبيت قواعد المروءة تربية على الاعتزاز بالله تعالى والثقة في النفس التي خلقها الله تعالى، وهذا يحرك النشء ويدفعه إلى تحقيق المأمول، وإنجاز المرغوب.

---

(١) العقد الفريد، ١/٧٠.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/٢١٤.

المبحث الثاني
مشروع الناشئ العبقري في الفكر الإصلاحي

- المطلب الأول: نبت العبقرية:

العبقرية أمل يراود أصحاب الهمم، والراغبين في الوصول إلى القمم، فالوصول إلى أرقى الدرجات عن طريق العبقرية والذكاء والتفوق.

«تقوم العبقرية على الذكاء والجد في طلب العلم، ثم على كبر الهمة، فمن لم يكن ذكيًا لم يكن حظه من العلم إلا أن يحفظ ما أنتجته قرائح العلماء من قبله، ومن لم يجد في طلب العلم، ولم يغذ ذكاءه بثمرات القرائح المبدعة، بقي ذكاؤه مقصورًا في دائرة ضيقة، فلا يقوى على أن يحلق في سماء العلوم، ليبلغ الغاية السامية، وماذا تصنع المرأة الكيسة في بيت لا مؤونة فيه ولا متاع؟ يقولون: إن ابن سينا[1] لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة واحدة كاملة، ولا اشتغل بالنهار بسوى المطالعة. وقالوا:

---

(١) هو: الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا، من مؤلفاته: مختصر إقليدس، حدود الأجرام السماوية، الإشارة إلى علم المنطق. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٤٣٧/١.

لم يترك ابن رشد[1] النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه، أو ليلة بنائه على أهله.

ومن لم تكن همته في العلم كبيرة، لم يكفه ذكاؤه ولا جده في الطلب لأن يكون عبقريًا، فقد يكون الرجل ذكيًا مجدًا في التحصيل، وصغر همته يحجم به أن يوجه ذكاءه إلى نقد آراء قديمة، أو ابتكار آراء جديدة حميدة: إذا غامرت في شرف مروم.. فلا تقنع بما دون النجوم[2] [3].

- **الابتكار:**

العكوف على البحث وكثرة الإطلاع يفتح للباحث أبوابًا جديدة، ويعطيه أبعادًا لم يصل إليها أحد قبله، وهذا هو المطلوب في النبوغ،

---

(١) ابن رشد: هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد أبو الوليد، فقيه مالكي، فيلسوف، طبيب، من أهل الأندلس، من أهل قرطبة، عني بكلام أرسطو، وترجمه إلى العربية، وزاد عليه زيادات كثيرة، اتهم بالزندقة والإلحاد، فنفي إلى مراكش، وأحرقت بعض كتبه، ومات بمراكش، ودفن بقرطبة، ويلقب بالحفيد تمييزاً له عن جده أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد الذي يُميز بالجد، ولد عام ٥٢٠م، وتوفي عام ٥٩٥هـ، من مصنفاته: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»، «تهافت التهافت» في الفلسفة، «الكليات» في الطب، «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه، ورسالة في حركة الفلك.

(٢) يقول: إذا طلبت شرفاً فلا تقنع بما دون أعلاه، والمغامرة الدخول في المهالك، والمعنى: إذا غامرت في طلب شرف فطعم الموت في أمر صغير........ كطعم الموت في أمر عظيم.

(٣) رسائل الإصلاح، ٣٨/١.

والمنتظر من رواد البحث العلمي الجاد، فليس البحث قائمًا على الكم، إنما على الكيف، وليس قائماً على كثرة المعلومات إنما على جودتها، وليس قائماً على كثرة النقول إنما على انتقائها والتخير لها، وليس قائماً على الاهتمام الأوحد بالنقل من هنا وهناك، إنما هو قائم على الجوانب الموضوعية، والشخصية البحثية، والقدرة الفذة على التوجيه والتعليق والنقد العلمي البناء.

وليس قائماً على ذكر توصيات سبق أن أتى بها آخرون، إنما هو قائم على توصيات جديدة تنفع الأمة في اللحظة التي تعيش فيها؛ لأن البحث العلمي الجاد يعالج الأمة فترة فترة، ولحظة لحظة، ومرحلة مرحلة.

يقول الإمام في الحديث عن فضل الابتكار في العلم: «ولا يناله طالبه من مجد وكرامة، حديث لا يكشف عن غامض ولا يطرق السمع بجديد، فأقصد إلى شيء غير هذا، هو لفت أنظار نشئنا إلى ناحية تجعل المعارف لدينا غزيرة والمباحث محررة، والآراء مبتكرة، وهي الوسيلة التي صعدت بعلمائنا الذين خدموا الدين والعلم والمدنية، فكانت لهم المكانة التي يصفها التاريخ بإجلال وإعجاب، ونعني بهذه الوسيلة: كبر الهمة في العلم»[1].

---

(١) السابق، ١/٨٤.

- المطلب الثاني: ربط النشء بغاية وخطة تحقيقيها:

قيمة الحياة بما فيها من غايات نبيلة يسعى الناس إليها، ويجتهدون في سبيل تحقيقها.. والوصول إلى الغاية يستوجب خطة محكمة، ونظاماً دقيقاً.

«فمن وضع أمامه غاية شريفة ورام من قومه العمل لها بعزم لا يخالطه فتور، فما عليه إلا أن يريهم بالأسلوب السائغ والدليل المقنع وجه شرف تلك الغاية، ثم يصف لهم طريقها الناجح، فلا يكون منهم إلا أن تسابقوا إليها، ويقتحموا كل عقبة تلاقيهم في سبيلها»(١).

فخطوات تحقيق الغاية، كما يلي:

- كشف المصلح المحامد في الغاية، وإبراز المصالح في تحقيقها، والمنافع المترتبة من ورائها.

- تحديد الطريق المؤدي إلى تلك الغاية، كي لا تتشعب بالناس الطرق، وتتوزع بهم السبل، فيشردون عن الغاية.

- إلزام أصحاب الغايات بالتعب والاجتهاد، واستطابة الآلام، واستلذاذ المتاعب في سبيل الغاية، النبيلة، وهذا يعني كثرة الراغبين في السير للوصول إلى الغاية النبيلة.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٦٧-٦٨.

فالعبقرية تحتاج إلى ما يلي:

- صفة الذكاء والتمتع بمواهب لدُنِّية مؤهلة للوصول إلى الدرجات العالية:

وتلـــك مواهـــب الــرحمن تحصّــل باجتهــاد أو بكســب

ولكـن لا غنى عـن بـذل جهـد بـإخلاص وجـد لا: بلعـب[1]

- التعب وترك الراحة: فلا راحة براحة، إنما الراحة بالتعب، ولا أمل بلذة، إنما الأمل بالألم، وصاحب غاية العبقرية لا يقف عند حد ذكائه ونباهته، إنما يدعم الذكاء بالجد والسهر، حتى يبتكر ويجدد، ويصل إلى ما لم يصل إليه غيره.

- علو همته: وهو أن يضع لنفسه أعلى درجة ليحققها، وأرقى مستوى ليصل إليه من خلال تعبه واجتهاده، فلا يفرط، ولا يتوانى، ولا يتكاسل، إنما يستوعب وقته بتحقيق مطالب علو همته، ويستثمر جهده في الوصول إلى أرقى الدرجات.

«ذلك عنوان كبر الهمة في العلم، وذلك ما يجعل أوطاننا منبت عبقرية فائقة، ومطلع حياة علمية رائعة، وما نبتت العبقرية في وطن نباتاً حسناً إلا كانت أرضه كرامة، وسماؤه عزة، وجوانبه حصانة ومنعة»[2].

---

(١) مدارج السالكين، ٤٧٤/٢.

(٢) رسائل الإصلاح، ٨٩/١.

وقد ركز الإمام، رحمه الله، في مقالاته على إصلاح النشء واعتبارهم الركيزة الأساسية في نهضة الأمة الإسلامية.

ومن كثرة ذكر الإمام للنشء في مقالاته، وتوجيه الخطاب إليهم، والتركيز عليهم، يتأكد أن النشء في فكر الإمام ووعيه وأنهم عنده بمكان، وأن الإصلاح السليم لا يتحقق إلا عن طريق النشء الذي تربى على أسس الإسلام، فالإصلاح على سواعد النشء، وطاقاتهم، ومواهبهم، وإمكاناتهم، وهذا ما تأكد لدى الإمام، وتحول إلى قناعة تامة عنده، فأولى النشء عناية وأعطاهم مساحة كبيرة في مقالاته.

فتربية النشء على العلم صمام أمان وسياج حماية لهم في كل مراحل حياتهم، وتتولى هذه التربية العملية شؤونهم وإصلاح أمورهم، فالعلم يجعل للإنسان رقيباً من نفسه يتولاها ويعنى بها، ويقوم بتسديدها، والاختيار لها ما يصحح سيرها، ويدعم موقفها، وما أجمل أن يتولى الإنسان نفسه، وأن يستلم تربيتها وتوجيهها من خلال العلم النافع، الذي تلقاه وأفاد منه، وعاد عليه بالخير في مستقبل حياته.

وهناك مجموعة من الحقائق في التربية العلمية للنشء، وهي:

- الشعوب التي تهتم بتربية النشء على حب العلم وعلى مدارسته هي الشعوب التي تؤسس للنهضة الحقيقية، وهي التي توجه إليها أنظار الإجلال والتقدير؛ لأنها أحسنت توجيه جهودها، وأجادت في إدارة عملية الإصلاح إدارة جيدة.

- آفات القعود عن العلم كثيرة، منها ارتباط النشء بغايات معينة ينقطع عندها طلبهم العلم، ويقفون عند حدها، فهذه الآفة تخرب العملية التعليمية برمتها، فالوقوف عند حد بعينه يقتل في الإنسان القدرة على التفوق والنبوغ، ويتصادم مع حقائق العلم وحاجات الحياة من العلم المتجدد، ومن رواده الحقيقيين.

- مشروع الناشئ العبقري هو الذي يتوقف عليه نهضة المجتمع، والعبقري الناشئ من مواصفاته التجديد والابتكار والإتيان بفهوم جديدة، وآراء سديدة، ورؤى ثرية، وأيضاً من مواصفاته علو همته، وقوة إرادته، وإقباله على العلم بقوة، وإنفاقه الوقت والجهد في سبيله.

- الناظر في أحوال التعليم المعاصر لا يجد المناخ السائد يشجع على وجود هذه العبقريات الناشئة، ومن يكون عبقرياً ناشئاً في هذا المناخ، إنما هذا من تدبير الله تعالى له، ومن نجاته بعبقريته وخروجه بموهبته من مناخ غير مستقر، وأسباب غير مشجعة، وظروف وملابسات لا تهيئ على الإطلاق تخريج عبقريات.

الفصل الرابع
خصائص العالم المصلح

المبحث الأول
الخصائص العلمية والبحثية

- المطلب الأول: حاجة العالم إلى القراءة:

العالم الحق، الذي يقضي وقته في القراءة والبحث، ولا ينقطع عن الطلب ما كان فيه نفس يجري.

فيلزم العالم الطموحُ العلمي والاجتهاد في النظر والتأمل ليكون معبراً عن حقيقة رسالته الإصلاحية، ولكي يصون نفسه ورسالته، ولا يخل بقدره ومكانته.

وعلى قدر ما يكون للرجل من خبرة بالعلوم وتمكن من البحث يحظى بالهيبة والقبول وثقة الناس واحترامهم.

فإجلال العالم باقتناع الناس به عالماً، وهذا يتحقق من خلال التشبع العلمي، والمداومة على القراءة والبحث، وبخلاف ذلك، فإن العالم يقتل نفسه، ويفض الناس من حوله.

يقول الإمام: «وأما نفوذ النظر في لباب المسائل، فلأن وقوف طالب العلم عند ظواهرها واكتفاءه بالمقدار الذي يقصر به عن حسن بيانها وإجادة العمل بها، لا يبعدان به عن منزلة خالي الذهن منها»[1].

فالوقوف عند ظواهر المسائل يتساوى أمره مع خالي الذهن منها، ولا يقبل عالم أن يوصف بالفراغ الذهني والفكري.

فالعلماء ما ينبغي أن يشغلهم عن العلم شاغل، وما ينبغي أن يقبلوا على ما يعكر صفوهم الفكري ويكدر عيشهم العلمي من شواغل الدنيا، وإنما يلزمهم أن يؤدوا رسالة، وأن ينفقوا فيها أوقاتهم وجهودهم، والله تعالى يصبرهم ويثبتهم على مبادئهم، ويفتح لهم من الأبواب ما ليس في البال ولا في الحسبان.

والعالم مع تنوع معارفه، وتوسع إطلاعاته، يجد نفسه أمام علم بعينه يوليه جهده، ويعطيه وقته، ويعيش معه جل عمره وهذا أصلح له ولغيره.

- البحث في لباب العلم:

العلم المتين دعا إليه الإمام في مشروعه الإصلاحي، وبنفس مساحة الدعوة إليه بنفس مساحة وجوده في حياته العلمية.

يقول، رحمه الله: «فالفقيه بحق من تعرض عليه الواقعة لم يفصل لها الشارع حُكماً، ولم يتناولها باجتهاد، فيرجع إلى الأصول الثابتة

(١) رسائل الإصلاح، ١/٨٦.

والقواعد المقررة ويقتبس لها حكماً موافقاً... ومما رمي الأفكار في خمول، ووقف بها حقبة عن الخوض في عباب العلوم إلى أمد بعيد، هذه المختصرات التي يقضي الطالب في فتح مغلقها وحل عقدها قطعة من حياته، جديرة بأن تصرف في اكتساب مسائل هي من صميم العلم، والملكات تقوى بالبحث في لباب العلم أكثر مما تقوى بالمناقشة في ألفاظ المؤلفين، وممن نبه على أن الاختصار عائق عن التحقيق في العلم أحد علماء القرن الثامن العلامة محمد المعروف بالأيلي[1] إذ قال: «كل أهل هذه المائة على حال من قبلهم من حفظ المختصرات، فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه، وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلاً عن معرفة الضعيف والصحيح»[2].

فالدعوة إلى صميم العلم من أصول البحث الجاد، الذي يشكل معالم الإصلاح، والابتعاد عن التفريعات التي تقضى فيها الجهود، وتفرغ لها الأوقات من الطرق السليمة للبحث العلمي الأصيل المستند إلى متين العلم وأصوله.

---

(١) الأيلي: محمد بن عبد الله محمد الحسيني الأيلي، سمع من علي بن مبارك شاة، وذكره ابن الجزري في مشيخة الجنيد، وكان لقبه نور الدين، مات في شعبان سنة٧٩٦هـ، الدراسات الكامنة في أعلام المائة الثامنة، ٥/٢٢٩، حيدرآباد، الهند.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/٨٦-٨٧.

- المطلب الثاني: التنوع في العلوم:

البحث العلمي الجاد من مقاصده الوصول إلى المعلومات الجديدة، التي تثري الفكر، وتوسع مدارك العقل، وتضيف جديدًا إلى المكتبة الإسلامية، والمصادر القديمة غنية بالمعلومات، وممتلئة باللآلئ الثمينة، التي تحتاج إلى غواص جيد يأتي بها ويعرضها في صورة علمية متكاملة، وإن الحصول على المعلومة السليمة، التي تدون في كتب المتأخرين يحتاج إلى بحث عميق واجتهاد كبير للوصول إلى المعلومة من بطون الكتب، والعثور على اللآلئ النفيسة.

وما أجمل أن يكون مصدر المعلومة من خلال بحث اجتهد فيه الباحث، وتنقل من أجلها في أكثر من مرجع حتى وصل إلى المعلومة، فأخذها بأمانة، واستدل بها على صحة شيء أو بطلانه. والإمام، رحمه الله، كان من هذا الطراز الذي كانت معلوماته نتيجة بحث عميق، فهو يقول:

«وأما بسط النظر في علوم متعددة فلارتباط العلوم بعضها ببعض، وكلما كان الإطلاع على العلوم أوسع، كان البحث في المسائل أجود، والخطأ في تقريرها أقل، والاحتجاج عليها أسلم، فلا يجيد دراسة التفسير أو الحديث من لم يكن ضليعاً في العربية. ولا يحكم الاستدلال على العقائد ويدفع ما يحوم عليها من شبه إلا من كان عارفاً بالتفسير والحديث

والقوانين المنطقية والمذاهب والآراء الفلسفية. ولا يقوم على دراسة الفقه أو أصوله من لم يملأ يده من الحديث والتفسير والعلوم العربية»[1].

فالعلوم تخرج من بعض وتدخل في بعض، ويلزم للمصلح وجود الخلفية السليمة عن كل علم حتى يتمكن من التصور الصحيح والعمل الإصلاحي السليم.

يقول الإمام: «وإطلاع الرجل على علوم كثيرة يعرف موضوع بحثها ويقف على جانب عظيم من مبادئها، لا يمنعه من الإقبال على علم يجعل له من الدرس والمطالعة ما يرفعه إلى مرتبة أئمته، الذين يكتبون فيه فيحققون، ويسألون عن أخفى مسائله فيجيبون والذي يضع يده في علوم شتى يمكنه أن يجاري طوائف العلماء في المباحث المختلفة»[2].

فالعلم الذي يرتبط به الإصلاح قائم على همة العالم العالية وكثرة إطلاعاته، وتبحره في العلوم، وتفرغه الوقت الطويل للقراءة والبحث الدقيق، فهذه أسباب جديرة أن تجعله يقف على فكرة جديدة، وأن يفتح له باب لم يفتح لأحد قبله، وأن ييسر له بحث تحتاجه المكتبة الإسلامية، فيكون قد أفاد وأجاد.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٨٧.
(٢) رسائل الإصلاح، ١/٨٦.

- المطلب الثالث: الاجتهاد في بلوغ العبقرية:

الإصلاح متوقف على التفوق في جميع المجالات، وبلوغ الذروة في الإتقان في كل ميدان، ومن تلك المجالات: المجالات العلمية والمعرفية، فالإصلاح متوقف على التفوق فيها، والوصول من خلالها إلى نتائج سليمة تنفع الأمة في مجال نهضتها، والعباقرة هم أهل التفوق في العلم والتجديد فيه.

فالعبقرية «هي أعلى المستويات من القدرات العقلية المعرفية، أو بتعبير آخر هي أعلى درجات الذكاء بالإضافة لمكوناتها»[1]، فالعبقرية مستوى معين من العقل، ومواهب خاصة لا تتوفر في جميع الناس، ويضع الإمام حداً للعبقري في المجال العلمي والفكري.

فيقول: «أما العالم أو الأديب الذي يدرس فنسمع منه ما لم نكن قد سمعنا، ويؤلف فنقرأ له ما لم نكن قد قرأنا، فذلك ما يحق لنا أن نسميه نابغة أو عبقرياً. فالنابغة أو العبقري هو الذي يحدث علماً أو فناً من فنون الأدب لم يكن شيئاً مذكوراً، كما صنع الخليل بن أحمد[2] في علم مقاييس الشعر، أو ينقله من قلة إلى كثرة، كما صنع عبد القاهر الجرجاني[3] في علم البلاغة،

---

(١) مقداد بالجن، الطريق إلى العبقرية، ط١ (دار الصحوة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص١٧٠.

(٢) الخليل بن أحمد: الأزدي الفراهيدي، البصري اللغوي صاحب العروض والنحو، صدوق عالم عابد، مات بعد الستين ومائة، وقيل سنة سبعين ومائة؛ ابن حجر، تقريب التهذيب (سوريا: دار الرشيد) ص ١٩٥.

(٣) عبد القاهر الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي، وكان شافعي المذهب، توفي سنة ٤٧١هـ؛ تاج الدين بن علي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (هاجر للطباعة والنشر) ١٤٩/٥.

ودون هذه الدرجة درجات، وسمو كعب العالم، أو الأديب في العبقرية على قدر ما يأتي به من أفكار مبتكرة، أو ما يستطيعه من حل المسائل المعضلة»[1].

فالعبقري ليس هذا التقليدي، الذي أخذ من الكتب، ونقل عن الأئمة، إنما هو المجدد في علمه، والمحدث طريقة هو صاحبها، وقد توصل إليها من خلال مؤهلاته الخاصة، وإمكاناته المتفردة.

وينفي الإمام عن حد العبقرية ما يتصور أنه منها؛ فيقول: «أما ابتداع الرجل للعلم أساليب تجعل مأخذه أقرب وتناوله أيسر، فليس بنبوغ في نفس العلم، وإنما هو نبوغ في صناعة التأليف فيه، وإذا كانت العصور قد تبسط يدها بالعلماء الناقلين كل البسط، فإنها لا تسمح بالعبقري إلا قليلاً.

فتية لم تلد سواها المعالي.. والمعالي قليلة الأولاد[2]»[3].

فليس كل عالم عبقرياً، فالعباقرة قلة، والذي يكتب جديداً، ويقدم للناس ما لم يسمعوه ويعلموه من قبل يكون قد غاص في الأعماق، وأخرج اللآلئ الثمينة، ويصدق عليه بهذا الجديد المفيد أن يكون صاحب مدرسة لها روادها ومحبوها.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٧٨.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/١٧٨.

(٣) ابن اللبانة يقول:

من بني المنذرين وهو انتساب   زاد في فخره بنو عباد

فتية لم تلد سواها المعالي   والمعالي قليلة الأولاد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٣٧٢/٤

المبحث الثاني
الخصائص الواقعية للعالم المصلح

- المطلب الأول: الرسوخ في معرفة الناس:

التعامل مع الناس يحتاج إلى علم بأحوالهم، ووعي بطباعهم، وإدراك بتنوعهم واختلافهم، قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ (النجم: ٣٢).

أي «هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم، التي ستصدر عنكم، وتقع منكم حيث أنشأ أباكم آدم من الأرض واستخرج ذريته، من صلبه أمثال الذر»[١].

قال ابن القيم: «إن الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، والأرض فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، والكريم

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤/٢٥٨.

واللئيم، فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره، فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه، ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره، وجعل الخبيثين أهل دار الشقاء، دار الخبثاء»[1].

والمصلح يتمتع بموهبة العلم بالناس، وهذا العلم يعطي دلالة واضحة على كثرة الاحتكاكات وخوض التجارب، وجني الفوائد والثمرات من خلال العلاقات مع الناس، والمعرفة الجيدة بهم.

«ولا يستقيم النظر في الوقائع من تلك الناحية إلا لمن يتصل بالناس ويرسخ في معرفة أحوال المجتمع، وكيف يدري هذه الأحوال من هو غائب عنها، بعيد من مصادرها ومواردها؟»[2].

فالتعامل مع الناس علم أحاط به الإمام وسطره في رسائل الإصلاح، وفهم الإمام للناس جعله يبين أنواعاً لا يدركها إلا أصحاب البصيرة، والرؤية الدقيقة.

فعلم النفس البشرية علم عزيز لا يدركه إلا أهل الخبرة والدراية، وقد سطر الإمام في «رسائل الإصلاح» ما يؤكد تماماً علمه بطبائع النفوس البشرية.

---

(١) مفتاح دار السعادة، ١/٤.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/١٦٠.

«وينتفع الرجل من دهائه عند لقاء الطبقات المختلفة، يزن عقول من يلاقونه، ويحس ما تكن صدورهم وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحب الناس ويشهد مجالسهم وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقول وسرائر وعواطف، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحاشى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق، ومراعاة عقول الناس وطباعهم ونزعاتهم فيما لا يعقد حقاً ولا يقيم باطلاً مظهر من مظاهر الإنسانية المهذبة»[1].

وهذا الكلام من الإمام يعطي الدلالة الواضحة على تميز العلم بما عند الناس من عقول، وأنها تتطلب تعاملاً خاصاً وأسلوباً مناسباً لكل عقل ولكل فهم، وهذا لا يطيقه إلا الأكابر، ولا يتمكن منه إلا أصحاب الصبر الجميل والنفس الطويل، فالناس عندهم تفاوت في عقولهم وأفهامهم؛ وأن يستوعب جميع العقول والأفهام رجل واحد فهذا الاستيعاب دلالة على كماله وعلى قدراته ومواهبه، حيث التزم بالصبر مع كل فرد، وتعامل مع كل شخص على حسبه ومقدار فهمه.

---

(١) السابق، ١/٩٥.

- المطلب الثاني: الواقعية عند المصلح في قراءة الواقع:

لا يوجد في تاريخ المجتمعات البشرية مجتمع خلا من انحرافات، ولم توجد فيه مخالفات، حتى مجتمع الصحابة الذي أثنى عليه رسول الله ﷺ لم يخل هو الآخر من مخالفات، فقد وجدت فيه جرائم، وارتكبت فيه كبائر.

فالمجتمع الإسلامي مجتمع إنساني، فيه شهوات ورغبات، يتغلب البعض عليها فيحلق في الأجواء العالية ويلامس السماء، وتتغلب الشهوات على البعض فينزل بها إلى أسفل سافلين.

يقول الإمام: «وليس على وجه المعمورة اليوم أمة استوفت خصال الكمال وبلغت في رقيها المدني أن يفتح الناقد الألمعي فيها عينه فلا يرى إلا أعمالاً مرضية، أو عادات مقبولة، فإذا وجد في الأفراد من يفضل ببراءته من العيوب جملة، فإن الأمم إنما تفضل بغلبة خيرها على شرها، ورجحان محامدها على مذامها، وإذا وجد في الأفراد من يأذن لك أساتذة التربية في أن تقتدي بسيرته على الإطلاق، فليس في الأمم أمة يقول الرجل الحكيم لشعبه الناهض خض خوضها في كل واد، وشابهها مشابهة الغراب للغراب[1]. هذه حقيقة قد تغيب عن أذهان فئة من الشعوب الآخذة في النهوض»[2].

---

(١) مشابهة الغراب للغراب: لشدة التشابه بين الغربان، ولعدم القدرة على التمييز بينها.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/١٤٨.

والنظرة المعتدلة للمجتمع لابد أن تراعي التركيبة الإنسانية والطبيعة البشرية، وفي مقابل ذلك يجاهد المصلحون من أجل الوصول بالمجتمع إلى المستوى اللائق في الالتزام بتعاليم الإسلام.

والمصلح يتمتع بخبرة تؤهله لقراءة الواقع قراءة جيدة، والنظر في أحواله نظرة سديدة، والاستشفاف من الواقع مجريات الأحداث وتطورات المواقف.

ولا يقال: إن المصلح يدعي علم الغيب، ويتدخل فيما ليس له، ويتكلم فيما لا يحق له الخوض فيه، لكن الأمر عند المصلح أن ذاكرته مخزونة بالأحداث والوقائع الكثيرة، التي احتك بها، وخالط أطرافها، وتأثر بها، وعايشها في جميع مجرياتها، فيستطيع من خلال ذلك قراءة الواقع، ووضع تصور سليم لمجريات الأحداث، وتصور سليم أيضاً لما تتجه إليه الأمور ببصيرة نافذة، وفراسة جيدة، وخبرة كبيرة.

«وما أحسن قول بعض السادات: العقل عقلان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع ما لم يكن ثم مطبوع»[1].

فعقل المصلح يرشده إلى استخلاص النتائج من المقدمات، ومعرفة المواقف من طبيعة الأشخاص، والجمع بين الماضي والحاضر، والربط بين الوقائع المتشابهة، والأحداث المتوقعة في رؤية واسعة ونظرة ثاقبة.

---

(١) الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت (مكتبة الساعي، بدون) ص٢٨.

- المطلب الثالث: الدعوة إلى الإصلاح من خلال أصحاب الوعي بتاريخ الوقائع:

التاريخ هو الذاكرة الحية، التي تمد المجتمع بالخبرات وتفيده بالتجارب لينطلق وفق أطر سليمة وضوابط صحيحة تصون سيره وتحمي نظامه، والتاريخ حافل بالدروس والوقائع، التي تكسب المجتمع حصانة وتحميه من أي آفة مدمرة أو جبهة مهلكة.

والوعي بالتاريخ في «رسائل الإصلاح» كان عاملاً مؤثراً في قراءة الواقع قراءة سليمة وفي توظيف الخبرة العملية في الكتابة، بحيث كان التاريخ الذي شهده الإمام وعاصر وقائعه وعايش أحداثه وخبر رجاله ووعى ملامحه، وأدرك أبعاده، وأخذ منها العظة كان منطلقاً للرؤى الإصلاحية، التي سطرها في «رسائل الإصلاح».

فالاستدلال بالتاريخ ليس على أنه التاريخ القديم أو تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الصحابة والتابعين، إنما يقصد به تاريخ الوقائع والأحداث المعاصرة، التي شهدها بنفسه وتفاعل معها. وكثيراً ما نجد الإحالة في الاستدلال على التاريخ وهذا يكاد يكون ثابتاً في جميع المقالات، وهذا للمسلك الفكري، الذي اختطه الإمام لنفسه.

فيذكر الإمام من خلال الوعي بالتاريخ الاستخفاف بالتعليم الديني وعدم تقدير دوره في المجتمع، وعدم تفهم الحاجة إليه شرعاً وسياسة.

يقول الإمام: «وقد دلنا التاريخ والمشاهدات على أن وزارات المعارف في بعض الشعوب الإسلامية، قد تستخف بالتعليم الديني متى ألقي أمرها إلى من نشأ في غفلة عن آداب الدين، وقصر في السياسة شأوه، فليس له بصيرة يحس بها فضل الدين ومحاسنه، ولا بعد نظر في السياسة يفقه به أن خير ما تتألف به الأمم الإسلامية رعاية دينها، وجعله روحاً في تربية أبنائها»[1]. ويذكر من تاريخ الوقائع انحراف العلماء والسلاطين، وخيانتهما الأمانة، وابتعادهما عن نصيحة الأمة.

ويقول: «والتاريخ الصادق قد حدثنا أيضاً أن أهل العلم من فتنته الدنيا بزخرفها فانطلق يجري وراءها، لا يراعي للحق عهداً، ولا لجانب الله حرمة، وحدثنا أن في الرؤساء من يكون نصيب اللهو والانهماك في الشهوات منه أكثر من نصيب الجد والرشد»[2].

وفي المقابل، يذكر تاريخ العلماء والحكام، الذين سعدت بهم الأمة، وازدهرت حياتها بتعاونهما وتفاهمهما لمصلحتها.

«والتاريخ الصادق يحدثنا أن بلاد الإسلام قد حظيت بعلماء يزهدون في زهرة الحياة الدنيا ويبيعونها بكلمة حق يقولونها ابتغاء أن يكون لها في إصلاح حال السلطان أثر كبير أو صغير، وحظيت برؤساء يرتاحون لوعظ العالم

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٢٧.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/٢٢٣.

الأمين، ويسيغونه إساغة الظمآن للماء القراح، وبمثل هؤلاء العلماء والأمراء تسعد الأمة، ويعظم شأن الدولة»[1].

ويذكر الإمام من خلال التاريخ نوعية من العلماء المشاركين مع الناس في حياتهم، والمتعاونين معهم في إصلاح شؤونهم، وإقامة أحوالهم على المستوى المنشود.

«والتاريخ يملأ آذاننا بأسماء رجال أحرزوا بعلمهم الزاخر مكانة تكفيهم لأن يعيشوا بين الناس في هناءة وإجلال، ولكن ما يبذره الدين في نفوسهم من غيرة وإخلاص يأبى لهم أن يقضوا حياتهم بين جدران المدارس أو المساجد دون أن ينفقوا منها في تعرف الشئون العامة، والجهاد في نجاة الأمة قسطاً وافراً»[2].

فالاستدلال بالتاريخ في «رسائل الإصلاح» يعني أن خبرة الإمام كبيرة، وتجاربه كثيرة، وفهمه للوقائع فهم دقيق، ووعيه بالأمور على أوفى ما يكون.

---

(١) السابق، ١/٢٢٣.

(٢) السابق، ١/٢٤.

المبحث الثالث

الخصائص الاجتماعية للعالم المصلح

- المطلب الأول: العمل الإصلاحي الاجتماعي:

العمل الاجتماعي من الأعمال التي يتوقف عليها إصلاح شؤون المسلمين، فقد خلق الله تعالى الناس على طبيعة متفاوتة، فمنهم الغني والفقير، ومنهم القوي والضعيف، ومنهم الصحيح والمريض، ومنهم صاحب الجاه والخامل،... ولا بد من وجود تعاون بين أنواع الناس حتى تستقيم شؤونهم وتصلح أحوالهم.

والعمل الاجتماعي من الأعمال التي يتعدى نفعها، وهو أوسع دائرة وأخصب عطاءً، وأجزل ثواباً، فإعطاء الفقراء، ومساعدة الضعفاء، والتيسير على المعسرين، وكفالة الأيتام، وسد حاجات المجتمع، وإعانة المظلومين، وإعطاء المحرومين، وسداد الديون، كل هذا وغيره من الأعمال التي تصلح المجتمع، وتقوي الصلة، وتوثق العلاقة بين أفراده.

والمتعرض للعمل الدعوي معرض للإصابة بأذى ونزول الضرر، وحصول الألم، وهو مع هذا يتمسك بالعمل، ويزداد إصراراً عليه، ولا ينفصل عنه، ولا يلوذ بالفرار منه، فهو يتحمل لوجه الله، وما أصابه في سبيل الله فهو محبوب عند الله تعالى.

والأولى بهذا العمل الاجتماعي هم أهل العلم، الذين حملوا الأمانة، ويلزمهم تأديتها من خلال ظهور آثارها على الأمة كلها، فهم أمناء على العقول والقلوب والأبدان، والعمل الاجتماعي يصلح الأبدان والنفوس.

«فشريعة الإسلام مشربة روح الاجتماع، ومن ثم ترى علماءها يخوضون في المجامع، يقولون طيباً، ويعملون صالحاً، وهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: «خالط الناس ودينك لا تكلمنه»[1]»[2].

فالمخالطة بالناس مشروطة بعدم تعرض الدين لجرح، فالجراحات كثيرة، وقد يكون الجرح في مقتل، وصاحب الدين يخالط مع المحافظة على دينه، فلا يقبل إهدار القيم، وإضاعة المبادئ، والتنازل عن أخلاق دينه، وتعاليم عقيدته.

والعلماء، الذين لهم باع في المجال الاجتماعي ينفقون أموالهم في سبيل الله، ولا يبخلون على أصحاب الحاجات، ولا يكتفون من الدعوة بمجرد الخطابة المنبرية، أو الوعظ العام دون مشاركة المجتمع في النفقة، ورفع الكرب بالصدقة.

فالعالم إذا وعظ أبلغ، وإذا خطب أثر، وإذا أنفق كان سخيًّا كريمًا، فيجمع بين الجود في المال، والجود في العلم، وبين إعطاء الأمة من عقله وفكره، وإعطاء الأمة من بره وعمله.

---

(١) البخاري، كتاب الأدب (٨١) باب الانبساط إلى الناس..قال ابن حجر: تكلمنه من الكَلْم، وهو الجرح وزناً ومعنى. فتح الباري، ١٠/٥٤٢.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/١٥٦.

«فمن أدب العلماء أن يسابقوا الأمة إلى اجتناب ما يؤاخذ به، وعمل ما يحمد عليه كأن ينفقوا في وجوه البر والمشروعات الصالحات ما ينفقه أمثالهم من المكثرين أو المقلين، فإن ذلك أدل على إخلاصهم، وأدعى إلى توقيرهم وقبولهم نصائحهم»[1].

والعلماء لا يتركون الأمة تصارع الأهوال وحدها، ويقفون مكتفين بالمشاهدة، أو مكتفين بكلمات الوعظ والإرشاد، إنما العالم يتصدى لمشكلات المجتمع، ويبتكر الحلول، التي تخلصه من كربه، وتنجيه من ورطته.

يقول، رحمه الله: «وإذا قص علينا التاريخ أن فريقاً من أهل العلم قضوا حياتهم في بحث المسائل العلمية البحتة، فقد قص علينا أن أمة من عظمائهم كانوا ينظرون في الشؤون العامة، ويمثلون السيرة التي تكسو صاحبها جلالة، وترفع له بين الخلائق ذكراً.

كان أهل العلم يوجهون هممهم إلى الوسائل، التي تقي الأمة ممن يبغونها الأذى، فهذا أبو بكر بن العربي[2] قاضي أشبيلية[3] رأى

(١) رسائل الإصلاح، ٥٢/١.

(٢) أبو بكر بن العربي قاضي أشبيلية: محمد بن عبد الله أحمد أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي، ولد في شعبان سنة ٤٦٨هـ، مات في ربيع الآخر سنة ٥٤٣هـ، كان من أهل التفسير والعلوم والاستبحار فيها. السيوطي، طبقات المفسرين، مكتبة وهبة، ١٠٥/١.

(٣) أشبيلية: مدينة عظيمة في الأندلس، وهي غربي قرطبة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٩٥/١.

ناحية من سور أشبيلية محتاجة إلى إصلاح ولم يكن في الخزانة مال متوفر يقوم بسدادها، ففرض على الناس التبرع بجلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد أضحى، فأحضروها وصرفت أثمانها في إصلاح تلك الناحية المتهدمة، وكان محمد بن عبد الله بن يحي الليثي[1] قاضي قرطبة كثيراً ما كان يخرج إلى الثغور ويتصرف في إصلاح ما وهى منها حتى مات في بعض الحصون المجاورة لطليطلة»[2] [3].

فالعلماء هم الأمناء على الأمة، ويلزمهم من مقتضى الأمانة المشاركة الفعالة، والجهود الاجتماعية البناءة لإصلاح العلل وسد الخلل، فليست دعوتهم كلاماً واقتصاراً على الخطابة القولية، إنما دعوتهم مشاركة فعالة ونزول من على المنبر، واندماج في المجتمع، والتحام بالأمة ومعاناتها، وسد لحاجاتها وتلبية لمطالبها.

---

(١) محمد بن عبد الله بن يحيى الليثي قاضي قرطبة: محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج أبو بكر الفهري الإشبيلي، برع في الفقه والعربية، وقدم للشورى مع أبي بكر ابن العربي سنة ٢١هـ توفى سنة ٨٦هـ. الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٤٩/٤١.

(٢) طليطلة: بضم الطاءين وفتح اللامين، وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس.. وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين. ياقوت الحموي، معجم البلدان: باء الطاء واللام، ١٦٧/٣.

(٣) رسائل الإصلاح، ٤٩/١-٥٠.

فالعلماء يقومون بواجب التعاون مع أصناف المجتمع بلا استثناء أحد، فهم يتعاونون مع الجاهلين تعليمًا، والعوام وعظًا، والغافلين تذكيرًا، والضعفاء تقوية، والمحرومين إعطاءً، والفقراء إغناءً، وهكذا يتعاون العلماء مع جميع أبناء المجتمع.

«فمن التعاون على الدين في هذا العصر أن ينهض المسلمون نهضة صادقة. فيبسطوا أيديهم بالبذل في سبيل إنشاء مدارس ومستشفيات وملاجئ تغني عن تلك المباني المفتوحة لإغواء الغافلين؛ ومن التعاون على حفظ الدين أن ينشط العلماء للإرشاد فيطلقوا ألسنتهم وأقلامهم في نصح من في قلوبهم بقية من خير، بأن لا يرسلوا أبناءهم إلى تلك المدارس التي لو غفل عنها الناس اليوم غفلتهم عنها بالأمس لطوى بساط الدين طي السجل للكتاب»[1].

فالعلماء من منطلق تعاونهم ينظرون في الظواهر السلبية التي تتفشى في المجتمع، ويقفون لها بالمرصاد، ولا بد للعالم من ابتكار في دعوته، وعدم الوقوف على وسائل بعينها والجمود على طرق بذاتها.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٦٨.

- المطلب الثاني: تعارض العزلة مع المسؤولية المجتمعية عند العالم المصلح:

اعتزال المجتمع خطورته كبيرة، ويحرم الإنسان من ثواب جزيل، لا يمكن أن يتحصل عليه إلا من خلال خلطته.

عن أبي هريرة ﷺ: «مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ فَأَعْجَبَتْهُ لِطِيبِهَا، فَقَالَ: لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ؟! وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **لا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمْ الْجَنَّةَ؟ اغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**»[1].

فالخلطة لها بركاتها، وينال صاحبها بسببها ما لا يناله ويتحصل عليه بعزلته، وإن كدر الخلطة مقدم على صفاء العزلة، ومن المفاهيم الخاطئة رغبة البعض في الراحة من الناس وعدم الاحتكاك بهم، والحرص على تلاشيهم، وعدم الجلوس معهم، والرغبة في البعد من أجل صفاء النفس وراحة البال وسلامة الذهن، وهذا كله ليس صحيحاً، فمن ابتعد عن الناس رغبة في الراحة وصفاء الذهن لم يفهم الإسلام فهماً جيداً، ولم يستوعب حقيقة الرسالة الإسلامية القائمة على العيش بين مجتمع له طبيعته المقتضية الخلطة،

---

(١) الترمذي وحسنه (١٦٥٠)، والحاكم وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ٦٨/٢.

والوجود بين ناس لهم آراؤهم، وطباعهم، وتصوراتهم، وأمزجتهم، وهو في وجوده بينهم مؤثر فيهم ومبتلى بهم، وهذا يؤهله لنيل الأجر الكبير والجزاء العظيم. وقد دعت «رسائل الإصلاح» إلى الخلطة الإيجابية، وحذرت كل التحذير من العزلة السلبية.

يقول، رحمه الله:

«وإذا هان اعتزال من لا يرجوه الناس لعلم أو رأى أو معونة على عمل اجتماعي، فإن عزلة العالم أو المجرب للأمور أو المستطيع لأن يعمل مع الجماعة خيراً، ذات خطر كبير، وبالأحرى حيث تظهر المنكرات، أو تكون الأمة غارقة في جهالة أو تبتلى بملمات اجتماعية. واعتزال العالم للجماعة قد يكون له أثر في قلة إصابته فيما يتعرض له من الفتاوى، فإن للنظر في الوقائع من ناحية ما يترتب عليها من خير أو شر دخلاً في إصابة الحق، «ولا يستقيم النظر في الوقائع.. إلا لمن يتصل بالناس ويرسخ في معرفة أحوال المجتمع، وكيف يدري هذه الأحوال من هو غائب عنها بعيد عن مصادرها ومواردها»[1].

فمن الناس من لا تؤثر عزلته، ويستوي الأمر في وجوده وغيابه، فليس مؤثراً ولا صاحب بصمة، وليس فاعلاً في وجوده بين الناس.

ومن الناس من يتأثر المجتمع بعزلتهم، ويعاني بغيابهم، ومن هؤلاء العلماء.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٦٠.

فالعالم لا يمكن له إلا أن يكون مختلطًا بالمجتمع، معايشًا الناس، وإن جاز لغيره العزلة فلا يجوز له ذلك؛ لأن وجوده في المجتمع يؤثر فيه تأثيرًا إيجابيًا، فيتصدى لمشكلة، ويفك معضلة، ويقوي ضعيفًا وينصر مظلومًا، ويفتي الناس، ويعلم الجاهل، ويرشد الضال، ويهدي الحيْران، وهذا وغيره لا يتحصل عليه العالم وهو بعيد عن هذا المجتمع، منعزل عنه لا صلة له به، بل إن العالم يفقد مصداقيته، وتذهب من القلوب آثار كلماته إن اعتاد الناس رؤيته فقط يعظ في المسجد، ويخطب على المنبر، فمثل هذا النظام مع الناس يعد من العزلة أيضاً، إنما العالم يكون مع الناس في مشكلاتهم، ويعايش أحوالهم، ويتعرف أخبارهم، ويكون لهم كما يكون الوالد لولده.

وقد عدت «رسائل الإصلاح» العزلة السلبية من الأزمات، التي نزلت بالأمة، والمعوقات التي تعوق النهضة والتقدم والرقي.

- عزل العلماء والمصلحين:

العلماء والمصلحون لهم إسهام كبير في نهضة الأمة، وأصحاب الأهواء والمصالح الشخصية ليس من مصالحهم وجود هؤلاء العلماء والمصلحين ومن ثم يقفون أمامهم، ويقومون بعزلهم عن الحياة وعن إدارة المجتمع، والأخذ بأسباب النهضة الشرعية، وكان عزل العلماء والمصلحين وخلو الساحة منهم مدعاة لوجود غيرهم ممن ليس في باله ولا في تفكيره صالح الإسلام والمسلمين. فعند عزل الفقهاء والمصلحين يسود القبيلة منافقوها، ويتحكم فيها لكاعها، ويقود الركب أهل الغش وعدم النصح للأمة.

قال الإمام: «إن بعض نشئنا المتخرجين من مدارس غير إسلامية قد وقفوا موقف الدعوة إلى الإصلاح ولم يصبروا أنفسهم على تعرف آداب الدين فحادوا عن طرق الإصلاح النقية، ولم يبالوا أن يجهلوا على الدين ويجحدوا أن يكون له في الحياة المدنية سلطان كبير أو صغير»[1].

فيكون الأمر لغير أهله، وتكون الخطورة على عقول المسلمين من أصحاب التوجه الزائف، والقيادة التعليمية الفارغة من المضامين الشرعية والمعطيات الإيمانية.

- **انزواء أهل الشريعة:**

تكون العزلة في الانزواء والتقوقع حول الذات، والتمحور حول النفس، وعدم وجود قابلية من العلماء للإسهام والمشاركة، ويرجع هذا إلى الطبيعة الخاصة، وإلى التركيبة الشخصية التي لا تتفق مع وضع الأمة ومقتضيات الهموم والمشكلات فيها.

يقول الإمام: «إن كثيراً ممن درسوا العلوم الإسلامية تقاعدوا عن أن يخوضوا في شؤون الحياة المدنية، فكان انزواؤهم وزهدهم في منصب الإرشاد العام فرصة لظهور الدعايات المنحرفة عن الطريق المستقيم»[2].

فانزواء العلماء يفتح الباب للأدعياء، ويعطيهم سند التحدث بلسان الإسلام، وتصريح الدخول على قلوب وعقول المسلمين، وهذا له خطورته الكبيرة.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٥٥.

(٢) السابق، ١/٥٥.

ومن هنا فالعالم ليس منزويًا، إنما هو مع الناس في كل مكان، بسمته وهديه وشخصه وعمله، فيكون النموذج الأمثل، والقدوة في التعامل، والمثال في السلوك والتصرفات، فيتأثر به الناس، وتكون دعوته العملية أجدى من دعوته القولية، وتأثيره بسمته وهديه أكثر من تأثيره بوعظه وزجره.

- **البعد عن المجتمع للفساد:**

وجود الفساد في المجتمع مشجع لأهل الإصلاح الوجود في المجتمع للنهي عن الفساد، وليس داعياً إلى تركهم المجتمع، وترك الساحة لأهل الباطل والمجون.

«وقد يخطر بالبال أن الشر في هذا العصر أصبح مستطيراً، وأن للضلال والفساد دعاة لا يملون، وجنوداً لا يتقهقرون... قد يخطر كل هذا ببال الرجل فينحدر في غم ويضل سبل التفكير، فلا يرى طريقاً للخلاص من هذا الغم سوى البعد عن المجتمع والعيش في عزلة لا يسمع فيها صوت الباطل، ولا يبصر فيها منظراً من مناظر الإباحية المتهتكة.

ربما نسمع مثل هذا الخاطر من بعض من نشأوا في رشد وصلاح، وقد يكون هذا الخاطر وليد سريرة طيبة، ولكن العمل عليه يزيد الضلال صولة والفساد جولة، ويجعل المجتمع الذي تستمد منه الأمة حياتها ظلاماً لا يخلفه ضياءٌ، ودنساً لا يغسله ماء»[1].

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٥٩–١٦٠.

فاليأس مرفوض، وليس له أي مبرر، ولا يقبل لأصحابه أي تعليل، فالرسالة الإسلامية قائمة على الجهاد في سبيل الله والأخذ بالأسباب، والوقوف أمام مظاهر الفساد مع الاستعانة بالله تعالى، فالعالم الذي يحترق قلبه لتلك الظواهر المنحرفة يلزمه أن يعالجها بكل ما يستطيع، ومن مكونات استطاعته: تعاونه مع غيره، ومد جسور التعاون مع الكفاءات المختلفة للتصدي لكل ما يهدم المجتمع، ويخرب القيم.

وإن عملاً مع توفيق مهما كانت درجته ومهما كان حجمه أفضل من أعمال لم يصاحبها توفيق، فأفضل نعمة تنزل من السماء إلى الأرض هي التوفيق، وأخطر ما يصاب به العبد هو الخذلان، فمن وفق نقل جبلاً من مكانه بقدرة الله تعالى، ومن خذل لم يستطع أن ينقل حبة رمل من مكانها، فما على العبد إلا أن يأخذ بالأسباب، أما النتائج فليست إليه إنما هي إلى الله عز وجل.

الفصل الخامس
المشاركة في الإصلاح المجتمعي والسياسي

المبحث الأول
المسؤولية المجتمعية عن التعاون في الإصلاح

- المطلب الأول: حاجة المشروع إلى كثرة المصلحين:

الإصلاح عملية واسعة تحتاج إلى كل سبب من أجل نجاحها، وأسباب الإصلاح تتوزع على الأفراد، فكل فيه ما ليس في غيره، وفي غيره ما ليس فيه، ولا يقبل أن يعتز إنسان بما لديه من إمكانات وقدرات اعتزازاً يصل به إلى تعرية الآخرين، وتهميش قدراتهم، وإقصاء مواهبهم وملكاتهم.

ولا يقبل أيضاً الادعاء بالعجز وعدم القدرة على العطاء، فكل إنسان عنده القدرة ولديه من المواهب والإمكانات ما يفي بحاجة ويسد ثغرة، والمهم أن تكون لديه الرغبة في سد الثغرة، فعندها تخرج منه العجائب، وتظهر منه المواهب.

فالإصلاح يحتاج إلى جميع الطاقات والإمكانات، ويوظف فيه كل جهد في مكانه وكل عمل في إطاره، وحتى من كانت لديه قدرة واعتقد فيها الإفلاس، فإن الإسلام يهذبها ويوظفها فيما فيه سد الحاجات، ومن أبرز

الأدلة على ذلك صفوان بن المعطل[1] ﷺ هذا الصحابي الجليل الذي كان معروفاً بطول النوم[2]، فكلفه النبي ﷺ بمهمة كبيرة وهي الإتيان بما يسقط من الجيش من أدوات.

فلا يقبل في طريق الإصلاح إقصاء طاقة أو الإلهاء عنها، أو تهميشها أو تفريغ شخصية صاحبها، وأهل الحكمة ينظرون في كل شخصية قد يستخرجون منها ما ليس في حسبانها من سد الحاجات. ولذلك عنيت «رسائل الإصلاح» بكم المصلحين، وأيضاً بالكيف. فالكم والكيف مطلوبان من أجل الإصلاح.

فدائرة الإصلاح واسعة، وكل له حق المشاركة فيه، وليس طريق الإصلاح ينفرد به النخبة، أو تسيطر عليه الصفوة، وليس الإصلاح تحتكره مجموعة بعينها تعطي لنفسها وحدها حق الدفاع عن الإسلام وإحياء مضامينه، إنما الإصلاح واجب على كل مسلم، على حسب طاقته، وبما يتقنه من أمر، فدائرة الإصلاح تتسع لأبناء الأمة جميعاً بلا استثناء.

فالإصلاح الشمولي في العالم الإسلامي هو ما ينبغي أن يكون في تفكير المصلح فيجمع في الإصلاح بين أقطار العالم الإسلامي كله، ويربط بينها، ويرمي بالمسؤولية على كل عامل، ويعلق القضية برقبة كل مسلم في الأمة.

---

(١) صفوان بن المعطل بن ربيعة بن خزاعي السلمي، قال إسحاق: قتل صفوان في خلافة عمر في غزوة أرمينية سنة ٢٩هـ، الإصابة في تمييز الصحابة، ٣/٤٤٠.

(٢) قالت امرأة صفوان: زوجي... لا يصلي صلاة الفجر حتى تطلع الشمس.. قال صفوان: فإنا أهل البيت قد عرف لنا ذاك لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس، سنن أبي داود، ح ٢٤٥٩، وصححه الحاكم، ١٥٩٤، ووافقه الذهبي.

- المطلب الثاني: أسباب الحاجة إلى كثرة المصلحين:

أمراض الأمة كثيرة وتحتاج إلى مصلحين كثيرين لمتابعتها أولاً بأول، وعلاجها بالمنهج السليم، وأسباب الحاجة إلى المصلحين تتمثل فيما يلي:

- ضعف الأمة:

وكما كانت حالة بني إسرائيل مستدعية كثرة الرسل والمصلحين لشدة المرض، وخطورة العلة، فإن الأمة الإسلامية في شدة ابتعادها عن الإسلام تحتاج إلى كثرة من المصلحين للتصدي للأزمة الكبيرة والوقوف أمام المشكلات الخطيرة التي تعاني منها الأمة الإسلامية.

«فإن الحال في هذه العصور يدعو إلى بذل كل عناية في التعارف والبحث عن علل ضعفنا، ثم عن الدواء القاطع لهذه العلل؛ وماذا ينفع البحث عن العلل وأدويتها إذا لم ننهض إلى تركيب الأدوية ونتعاطاها على الوجه الذي يوفر نشاطنا، وتشتد به سواعدنا، ويجري به دم الحياة أو الحماسة في صغارنا وكبارنا»[1].

فعلل الواقع كثيرة، وأمراض الأمة عديدة تحتاج إلى كثرة في المصلحين يعالجون العلل ويتصدون للآفات.

- التغيرات العصرية:

العصر بما فيه من تقلبات وتغيرات انعكست على الأمة بالانحراف الشديد، الذي قل أن يوجد مثله في عصور التاريخ المختلفة، ولهذا التغير العصري كان لزاماً الاهتمام بالإكثار من المصلحين، وإخراجهم للأمة.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٦٠.

«وإذا كان العدد القليل فيما سلف يكفي لحراسة الدين وإرشاد من ينحرف عنه حتى يعود إليه، فلأن سلطان الإسلام يومئذ، وصوت غالب الجهل عليه خافت، أما اليوم فالحال ما ترون وما تسمعون»[١].

«وإذا انصرف بعض أهل العلم أو الرأي عن الاتصال بالجمهور أيام كانت راية الإسلام تخفق في الشرق والغرب، وكانت النفوس في اطمئنان سائد، فإن الحال في هذه العصور يدعو إلى بذل كل عناية في التعارف والبحث عن علل ضعفنا»[٢].

فالمقارنة بين العصور الماضية والعصر الحالي تكون نتيجتها في حتمية الاهتمام بالمصلحين وزيادة عددهم، وإخراجهم للأمة لإصلاحها في كل مجال وميدان.

- التصدي لعوامل اليأس والإحباط:

اليأس عواقبه خطيرة ومدمرة، فهو يقتل الطاقات، ويجهض المواهب والملكات، ويشل الحركة، ويحجم عن السعي، ويصيب الإنسان بخيبة الأمل، وضياع الروح وانهيار العزيمة، وفساد الإرادة، وهو أكبر عائق في طريق النهضة والتنمية الشاملة. وقد حذرت «رسائل الإصلاح» من اليأس مهما كان تبريره وتعليله.

---

(١) السابق، ١/٥٢.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/١٦٠.

«ينظر أهل العلم إلى ما غرق فيه شبابنا من التشبه بالمخالفين وتقليدهم في عادات لا تغني من الرقي شيئاً، وقد يرى بعضهم انحطاط كثير من أبنائنا في هذا التشبه والتقليد، فيعده قضاء مبرماً، ويملكه خاطر اليأس حتى ينتكث من التعرض للشؤون العامة ومعالجتها، ولكن الذي يعرف علة هذا التسرع ويكون قد قرأ التاريخ ليعتبر، يرى الأمر أهون من أن يصل بالنفوس إلى التردد في نجاح الدعوة، بله اليأس من نجاحها»[1].

- المطلب الثالث: تقديم المصلحة العامة للأمة:

يسير الكثير في طريق الإصلاح مراعاة للمصلحة العامة للأمة، فكل يحمل هم أمته، ويشارك في الإصلاح رفعاً لرايتها، وإعلاءً لشأنها، ووضعاً لها في مكانتها اللائقة.

«وتتفاوت همم الناس في مصارف الجاه، وأصغرهم همة من يستخدمه في منافعه الخاصة، ولا يوجهه إلى قضاء المصالح العامة، وقد دلنا التاريخ على أن كثيراً من زعماء الإسلام وعلمائه يدوسون منافعهم الخاصة بأقدامهم، وإذا وجدوا موضعاً لنفوذ الكلمة لم يذكروا إلا مصلحة عامة أو مصالح أشخاص يبتغون من السعي لها رضا الله في الدنيا والآخرة»[2].

فالمصلحة هي المصلحة العامة للأمة، والتي يجند المصلحون في سبيلها كل إمكاناتهم وطاقاتهم، ولا يقبلون على الإطلاق أن تهدر الطاقات في الهموم

---

(١) السابق، ١/٥٠.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/١٧١.

الشخصية، والمنافع الخاصة، فإن تعارضت مصالح أمتهم مع مصالحهم الخاصة قدموا مصالح الأمة، يقيناً أن مصلحتهم في تقديم المصالح العامة، والعناية بها.

فالمصلحون يغارون على المصالح العامة للأمة، ويألمون كل الألم إن نال الأمة سوء أو ضربت في أحد مراكزها، أو وصل العدو إلى مقدراتها، فإن القلوب تعتصر ألماً، وإن المصلحين لا يهدأ لهم بال، ولا يقر لهم قرار حتى تعود الأمة إلى ريادتها وسيادتها.

يقول، رحمه الله: «وكذلك الغيرة على الحقائق والمصالح تكون على قدر تفاضلها فيما يترتب عليها من العواقب.

فالغيرة الصادقة أن يتألم الرجل من الجهل على مقام الإلهية أو الرسالة العظمى أشد مما يتألم للطعن في نفسه أو في أخ له أو صديق، ويتألم لهدم مسجد أو إلغاء مدرسة أشد مما يتألم لهدم بيت أو إهمال حديقة.

بعيد من الغيرة عن الحقائق ذلك الذي يسمع سوء القول في الله أو في رسوله فلا يجد في نفسه لسماع هذا السفه أثراً، وإذا مس جانب من يتصل به نسباً أو يمد له من متاع هذه الحياة سبباً، هاج غضبه وارتعدت فرائصه»[1].

فمقياس عظمة المصلحين كم الآلام، التي يجدونها إن نال الأمة سوء، أو عند تعامل البعض مع القيم باستخفاف واستهزاء، فحب الدين يدعوهم إلى الوقوف على الفور أمام المنكر والتصدي السريع للفساد والمفسدين.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٧٢-٧٣.

المبحث الثاني
المسؤولية المجتمعية عن حل المشكلات

- المطلب الأول: توسيع دائرة المسؤولية عن الرعية:

المسؤولية عن الرعية دائرتها واسعة، فكل مسؤول في مكانه محاسب عن رعيته، فالمسؤولية من الحاكم إلى الخادم، وقد اهتمت «رسائل الإصلاح» بتوزيع المسؤولية على الجميع، ومن ذلك:

- مسؤولية الآباء والأمهات:

الظواهر المنحرفة في المجتمع يشترك في مسؤوليتها الرعاة من الحكام وأولياء الأمور، ومن تلك الظواهر المنحرفة التبرج والسفور.

يقول الإمام: «وإذا أردنا معالجة هذا التبرج الذي أوجس منه الشبان خيفة، فإن تبعته تعود إلى أولياء هؤلاء المتبرجات، إذ لم يأخذوا في تربيتهن بالحزم، ولا في الرقابة عليهن باليقظة، فمن طرق مكافحة الإعراض عن الزواج مقاومة هذا السفور القاضي على كرامة فتياتنا، وإرشادهن إلى أن الصيانة خير من الابتذال، والحياء أجمل من الصفاقة، وأي صفاقة أكثر من أن تقلب الفتاة وجهها في وجوه الرجال»[1].

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٧٥.

فالتبرج والسفور ترجع تبعته إلى أولياء أمور هؤلاء المتبرجات، فهم مسؤولون عن رعيتهم، ومحاسبون عنهم بين يدي الله يوم القيامة، فتلك الفتاة التي خرجت بهذه الصورة خرجت من بيت يقوم عليه راع، فلها أب، أو أخ، أو زوج، وهؤلاء جميعاً يقع عليهم التبعة في خروج المرأة بهذا الشكل المغوي المردي، ولو أن كل راع أدى ما يجب عليه لانتشرت الفضيلة، وعمت القيم، وساد المجتمع البر والتقوى.

- الاشتراك في الأخلاق:

أبناء المجتمع يشتركون في الأخلاق الفاضلة، وبمجموع هذه الأخلاق يكون تقدم المجتمع ونصرته، وكل فرد من أبناء هذا المجتمع يحمل قيمة بعينها وخلق بعينه من شأنه أن يرقى به مجتمعه، وأن تتحقق به النصرة لأمته.

وكل فرد قادر على أن يكون صاحب خلق، فالأخلاق أرزاق تتوزع على المجتمع، وكل يشارك فيها ويأخذ نصيبه منها، فالأخلاق ليست محتكرة في مجموعة، أو ينفرد بها الصفوة، ويدعي المدَّعون أنها من مستحقات النخبة دون غيرهم، إنما الأخلاق متاحة لأبناء المجتمع، كل يأخذ منها على حسب جهده وبمقدار إرادته وعزيمته.

وهذا ما كان واضحاً في «رسائل الإصلاح»، ففي فضيلة الإخلاص، على سبيل المثال، يقوم الإمام بتوزيع هذه القيمة على أبناء المجتمع فيقول:

والإخلاص يحمل القاضي على..........

والإخلاص يصون التاجر عن...........

والإخلاص يردع قلم الكاتب عن..........[1].

فالإخلاص يشترك فيه كل أفراد الأمة، فكل قادر على أن يكون مخلصًا في مكانه وفي مجاله، ويلزم أبناء الأمة أن يكونوا مخلصين دائمًا، ومجودين أعمالهم، وبالغين بها أعلى الدرجات.

وفي مقام الحلم وأثره في سعادة الحياة الفردية والجماعية؛ يقول، رحمه الله: «وصفوة الحديث أن الحلم يحتاج إليه عميد الأسرة في منزله، والتاجر في محل تجارته، والعالم في مجلس دراسته، والقاضي في مقطع أحكامه، والرئيس الأعلى في سياسة رعيته، بل يحتاج إليه كل إنسان ما دام الإنسان مدنياً بالطبع، لا يمكنه أن يعتزل الناس جملة، ويعيش في وحدة مطلقة»[2].

وفي موضوع التعاون في الإسلام يقول، رحمه الله:

وخلاصة المقال: «أن الإسلام أقام التعاون على أساس محكم، ومد له في كل ناحية من نواحي الحياة بسبب، فإذا وضع المسلمون أيديهم على هذه الأسباب الوثيقة، بلغت بهم المكانة المحفوفة بالعزة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨)».

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٢.

(٢) السابق، ١/١٨٩.

- **المطلب الثاني: الاشتراك في حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية:**

يشترك الحكام والمحكومون في حل مشكلات الأمة، ولا ينفرد بحلها الحكام وحدهم، ولا توطن الرعية أنفسها على أن مشكلاتها تحل فقط من جهة حكامها، وإنما تضع الرعية يدها في يد الراعي من أجل حل المشكلات.

- **الاشتراك في حل المشكلات الاجتماعية:**

المشكلات الاجتماعية تؤدي إلى تصدع المجتمع، وتقطيع روابطه، وتمزيق صلاته، ومن ثمّ يتحول المجتمع إلى ساحة عراك ونزاع، فتسود الاضطرابات، وتعم القلاقل، ولا يتفرغ المجتمع في هذا المناخ المتوتر للبناء والتعمير وإتمام المشروعات الإصلاحية.

ولهذا كان لابد من المشاركة من أبناء المجتمع جميعاً، والمشاركة من القادة الفكريين والتربويين لحل المشكلات الاجتماعية، ومن تلك المشكلات الاجتماعية تأخر سن الزواج.

يقول الإمام: «ومن علل قلة الزواج تشوف كثير من الشبان للاقتران بذات ثروة، وذوات الثروة اللاتي يقبلن على التزوج بالشبان المقلين غير كثير، فهل لأساتيذ التربية وخطباء المنابر، أن يلقنوا للنشء نصائح في الزواج، ويوجهوا نفوسهم إلى الناحية التي تجيء منها راحة البال، وانتظام الحياة، ودوام العشرة وهي طيب منبت الزوجة، وسماحة أخلاقها، وسمو آدابها؟! وأريد بطيب المنبت أن تنشأ في بيت يرعاه ذو غيرة وحزم وإن كان قوت أهله كفافاً»[1].

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٧٥-١٧٦.

وقد ذكر الإمام سببًا واحدًا وهو انتظار الشباب ذوات الثروات، وهذا - بلا شك- فيه مذمة كبيرة للشاب وطعن في رجولته، وتشكيك في قدرته على قيادة البيت قيادة واعية، وهذا ما لا يرضاه أصحاب الغيرة.

ومن الأسباب الأخرى لتأخر الزواج: الفقر وعدم القدرة على نفقات الزواج، والخوف من تحمل المسؤولية، وغير ذلك من الأسباب، وهذه المشكلة وغيرها من المشكلات الاجتماعية يجب التصدي لها.

- الاشتراك في حل المشكلات الاقتصادية:

المشكلة الاقتصادية من المشكلات الكبيرة، التي تعاني منها الأمة، والكل يلزمه أن يتعاون من أجل حلها؛ ولا يقف حلها عند حد الحاكم فقط، إنما يتجاوز حلها إلى أهل المال، الذين يتمكنون من المشاركة الفعالة، والتعاون البناء مع المجتمع.

يقول، رحمه الله: «وليست تبعية الحالة الاقتصادية ملقاة على عاتق أولي الأمر وحدهم، بل على الموسرين حظ من هذه التبعية عظيم، إذ في ميسورهم تأليف شركات تراعي في نظمها أصول الدين الحنيف، فتفيض بربح مبارك غزير، ويعيش من العمل بها خلق كثير»[1].

فلا يقع على الحكام وحدهم حل المشكلة الاقتصادية، إنما على المجتمع دور في حلها، وعلى أهل المال، خصوصاً، مسؤولية كبيرة في التصدي للمشكلات الاقتصادية.

---

(١) رسائل الإصلاح، ٦١/١.

ومن حل المشكلة الاقتصادية: شراء الرعية المنتج الوطني وتشجيعه حتى ولو كان أقل جودة وأكثر ثمنًا من غيره، فيحتسبون هذه الفوارق في سبيل تحسين الاقتصاد الوطني والارتقاء به. يقول، رحمه الله: «ويدخل في هذا القبيل اتخاذ نحو الملابس وأثاث البيوت من مصنوعاتهم، وفي المصنوعات القومية ما يغني غناءها، وفي الإقبال على المصنوعات القومية فتح باب عظيم من أبواب الثروة العامة، وارتقاء الشعوب على قدر يسارها»[1].

فهو يحذر من الإقبال على المنتجات غير الوطنية من الملابس والأثاث، ويحث على الإقبال على المنتجات الوطنية.

فالمشكلة الاقتصادية يشترك في حلها الحكام والرعية بالمشاركة البناءة، والإسهام الواعي، والتفهم لطبيعة المرحلة التي تمر بها الأمة، والتي تحتاج إلى كل جهد بناء، وعمل هادف في صالح الأمة.

- المطلب الثالث: إسهام القضاة في الإصلاح:

الرعية يلزمها اليقظة والوعي بما يدور حولها، وعليها إدراك أن يقظتها ووعيها حل لمشكلاتها وتحسين لأحوالها، وإدارة جيدة لمعاشها.

فالمسؤولية كبيرة، وكل إنسان يلزمه أن يؤدي دوره بأمانة، وأن يعي حقيقة المرحلة التي تمر بها الأمة، وأن يفكر كيف ينهض بها، وكيف يشارك في عملية إصلاحها.

---

(١) السابق، ١/١٥٣.

يقول، رحمه الله: «ومن أشد ما تبلى به المصالح العامة أن يصرفها من لا يدري كنهها، ولا يتدبر العواقب في تصريفها، وإذا انتهز أولئك الخاطئون غفلة الأمة فرصة لاهتضام حق التعليم والتربية، فإنما اليوم في يقظة تميز بها المهوشين[1] من المصلحين، فتقابل المهوش بامتعاض وتنديد، وتلاقي المصلح بإقبال وتأييد»[2].

ومن المجالات التي تستدعي ثبات أصحابها، وتمسكهم بمواقفهم مجال القضاء، فهو مجال يتمتع بخصوصيات بعينها، وليس على القاضي رقيب إلا الله سبحانه وتعالى، فيلزمه أن يخاف الله وحده، وأن يكون حكمه على ضوابط الشريعة الإسلامية.

«فالإسلام يلقن القاضي أنه مستقل، ليس لأحد عليه من سبيل، وقد قص علينا التاريخ أن كثيراً من القضاة العادلين كانوا لا يتباطئون أن يحكموا على الرئيس، الذي أجلسهم على منصة القضاء، حكمهم على أقصر الناس يداً وأدناهم منزلة»[3].

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٢٧.

الهوشة: الفتنة والهيج والاضطراب يقال: قد هوّش القومُ، وكذلك كل خلطة فقد هوشته. قال: ذو الرمة يصف المنازل وأن الرياح قد خلّطت بعض آثارها ببعض:

تعفْت لتهتان الشتاء وهوّشت   بها نائجات الصيف شرقية كُدْرا

وفي حديث ابن مسعود: « ... وَإِيَّاكُمْ وَهَوْشَاتِ الأَسْوَاقِ»، وقول الراجز: قد هشت بطونها واحقوقفت، أي اضطرب من لهزات. الجوهري، الصحاح في اللغة، ٢/٢٥٩.

(٢) رسائل الإصلاح، ١/٢٧.

(٣) السابق، ١/٣٣.

فالكل أمام القاضي سواء، ولا يكون حكمه منحازاً لجهة لما لها من نفوذ وسلطان، أو لشخص لما له هيمنة وقدرة على اتخاذ القرار، إنما القاضي يقول الحكم الذي لا يفضل به أحداً على حساب أحد، ولا تتحكم فيه اعتبارات شخصية، ولأن القضاء مهمة ثقيلة، فإن الكثير يتخوفه، ويرفض منصبه؛ لوعيه بثقله، وما فيه من أحكام لها آثارها، لكن الدعوة إلى القضاء مازجت بين الترغيب والترهيب حتى لا يترك المجتمع فوضى بلا ضبط، ولا فصل.

«هذه العواطف التي تجاذب القاضي وتناجيه أن يرضي خصماً بعينه، تجعل العدل في القضاء من قبيل ما يثقل على النفس ويجمح عنه الطبع، فكان من حكمة الدعوة الإسلامية أن تعنى به عناية صافية، وتدخل إلى الترغيب فيه من أبواب متعددة.

فقد «عنيت الشريعة بالعدل في القضاء عنايتها بكل ما هو دعامة لسعادة الحياة، فأتت فيه بالعظات البالغات: تبشر من أقامه بعلو المنزلة وحسن العاقبة، وتنذر من انحرف عنه بسوء المنقلب وعذاب الهون»[1].

فالدعوة الإسلامية من مقاصدها سلامة المجتمع.

---

(١) رسائل الإ صلاح، ١/٢٩.

الفصل السادس

الإصلاح من خلال كشف التأثر بالفكر الغربي في الكتابة عن الإسلام

المبحث الأول

طبيعة الخطأ العلمي في الكتابة عن الإسلام

- المطلب الأول: خطأ التأثر بالقراءة الغربية للإسلام:

من الأخطاء العلمية أخذ المفاهيم الإسلامية من كتابات الغربيين، والمتأثرين بهم، ومن الأخطاء: الحكم على الإسلام من خلال ما كتب عنه من أقلام غربية أو أقلام مستغربة، فهذا يجر على الإسلام مآسٍ كثيرة، ويلصق به اتهامات باطلة، فلا يمكن للكاتب الغربي أن يعبر عن المفاهيم الإسلامية بصورة سليمة، ولا يمكن له أن يتبنى الفكرة الإسلامية ويحسن صياغتها ويجيد التعبير عنها، ومن الخطأ أن ينظر البعض إلى هذه الكتابات على أنها خير تعبير عن الإسلام وأفضل صورة للدين، وأرقى تعبير عن المفاهيم، فهذا خطأ كبير.

يقول الإمام: «ولا ننسى بعد هذا أن ما بلغه الغربيون من التقدم في العلوم والفنون قد جعل لهم في القلوب إكباراً، وبلغ هذا الإكبار في بعض

النفوس الصغيرة أن يفوه أحد الغربيين بكلمة يطعن بها في حقيقة من حقائق الإسلام فيتلقوها منه بمتابعة، ويحسبوها طعناً صائباً، ولا سيما الكلمات، التي تصدر من طائفة يخرجون في زي الكتاب أو الفلاسفة، إذ يقع في أوهام الغافلين أنه نتيجة نظر لا يعرف غير البحث والدليل، ويفوتهم أن في هؤلاء الكتاب من لا يزال في أسر تقاليده وعواطفه، وفيهم من يكون بارعاً في ناحية من العلم قاصراً النظر في ناحية أخرى، وها نحن أولاء نقرأ نتائج أبحاثهم في موضوعات إلهية أو تاريخية أو اجتماعية أو لغوية، فترى فيهم من يتبع الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، وكان على نشئنا أن يعتبروا بالمناقشات، التي تدور بين علمائهم أنفسهم، فإنها شاهد صدق على أن من علمائهم أو فلاسفتهم من يعتمد الرأي لمجرد الشبهة، ولا يبالي أن يسميه علماً وهو لا يرتبط بعد بالحجة أو ما يشبه أن يكون حجة»[1].

فالانبهار بالكتابات الغربية ليس في محله، واعتماد رؤى الغربيين وتحليلاتهم في الفكر الإسلامي مصدرًا من مصادر المعرفة عند المسلمين لا يتفق مع أصول البحث العلمي السليم.

«وقد تكون المشكلة في دراستنا التاريخية وسير الأعلام، أو الكثير منها، أنها مرتهنة لمناهج وثقافات بعيدة عن قِيَمِنا وأصولنا ومرجعيتنا، ونسقنا المعرفي؛ لذلك جاءت في معظمها – إلا من رحم الله – مطبوعة بنظرات وفلسفات

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٩٩.

غريبة عن طبيعة هذا الدين، حيث توهم كثير من الباحثين أن تدين الإنسان وإيمانه، لا يمنعه في مجال الحياة والسياسة من المكر والدهاء والكذب والانتهازيَّة، والوُصُوليَّة والأثرة؛ لذلك تأتي الصورة أقرب ما تكون إلى الشخصية الخرافية المتناقضة.. وبهذه الرؤية والثقافة الانشطارية شُوِّهَت رموزنا، وقرئت بأبجديات مخطئة وغريبة عن مناهجنا وقيمنا، وانتقيت روايات هالكة وضعيفة ومنحازة، فلم تزدنا تلك المعارف والدراسات إلا بعثرة وارتباكاً وحيرة»[1].

والتاريخ الإسلامي تاريخ مشرف للمسلمين في كل زمان ومكان، وهو فخار لكل من انتسب إليه، وانطلق منه، وليس وصمة عار يتلاشاها المتأثرون بالهجمات المتكررة على التاريخ الإسلامي، فإن فئة من خصوم الأمة تصور للنشء التاريخ على أنه مظلم، وليس فيه نور، وعلى أنه كله هزائم متكررة وليس فيه انتصارات، وعلى أن التمسك به والعودة إليه لون من ألوان التخلف والانحدار.

ويلزم أهل التربية تصفية التاريخ الإسلامي مما علق به، وتنقيته من الشوائب، وربط الأجيال به.

- خطأ ترك مصادر الإسلام:

الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان لهذا الدين، ولا يمكن تنحيتهما واستبدالهما بغيرهما، والذهاب إلى مصادر أخرى تضع للحياة

---

(١) عمرو بن العاص (٣٧/١) اللواء الركن محمود خطاب شيت، مقدمة أ.عمر عبيد حسنه، كتاب الأمة، قطر، المحرم (١٤١٧هـ).

نظاماً، وبرنامجاً للعمل، فهذا كله من الخبط والخلط، الذي لا يتصل بالدين، فهناك ثوابت وأصول.

«من أنكر واحدة منها، فقد ابتغى في غير هداية الإسلام سبيلاً، ومثل من يماري في شيء منها ثم يدعي أنه لا يزال مخلصاً للإسلام مثل من يضرب بمعوله في أساس صرح شامخ، ثم يزعم أنه حريص على سلامته، عامل على رفع قواعده»[1].

– الأثر السيئ لترك مصادر الإسلام:

ترك مصادر الإسلام له آثاره السيئة، ومن ذلك:

– فراغ الرؤى الإصلاحية:

فجميع الرؤى الإصلاحية، التي تستمد من غير الإسلام إنما هي رؤى قاصرة تزيد الطين بِلّه، والمشكلة تفاقماً، والأزمة تعقيداً، وأيضاً تؤدى إلى ذهاب الناس إلى خوادع السبل، ومعامي الطرق، وإلى هلاك متيقن، وعذاب متحقق. والخطأ الكبير أن تستمر هذه الرؤى المنحرفة، وأن يصر أصحابها عليها في حين أن الأمور تتدهور، والأحوال تزداد سوءاً.

ولهذا كان لزاماً على قيادات الأمة الاعتراف بفشل هذه الحلول، وبإخفاق هذه الرؤى، وبالضرورة الاعتراف بحتمية الذهاب إلى الإسلام بمضامينه الثرية، ومعطياته القادرة على إنقاذ الأمة من ورطتها.

---

(١) السابق، ١/١٠٣.

- الحكم المتحامل على الإسلام:

الجهل بالمصادر الحقيقية للإسلام يؤدي إلى إحداث مظاهر التشكيك، وتكوين الخلفية عن الإسلام من خلال بعض الممارسات المنحرفة والسلوكيات المعوجة، وهذا يؤدي إلى اتهام الإسلام نفسه من قبل المتحاملين على هذا الإسلام. فالإنصاف يقتضي التفريق بين الإسلام كدين له مصادره، ومضامينه التي تتصف بالعصمة، والسداد، وبين تصرفات البعض المعوجة التي لا تتصل بالإسلام ولا ترتبط بمضامينه.

- انحراف التنشئة الثقافية:

فإن جهل النشء بالإسلام من أسباب انحرافه وتشكيله معاول هدم وتخريب لقيم المجتمع. «ينحرف الناشئ عن الدين متى شب على الجهل بحقائقه، وفريق من أبنائنا غير قليل لا يتعرفون الإسلام من وجهه الصحيح، وإنما ينتزعون صورته من مظاهر يرون عليها طوائف من المسلمين، ولم تكن هذه المظاهر من الإسلام في كثير ولا قليل»[1].

- المطلب الثاني: مراقبة حركة الثائرين على الإسلام:

المعادون للفكرة الإسلامية لهم فلسفتهم الخاصة في العداء، ويحققون من خلال تلك الفلسفة نجاحات في غيبة المتابعة والمراقبة من أهل الفكر الإسلامي الأصيل، ومن أهل الوعي بطريقة المجرمين، وبأسلوب أهل الخسة والدناءة، ومن الواجب مراقبة الفكر المنحرف، ومتابعة أصحابه، ودراسة أصنافه دراسة جيدة.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/٩٧-٩٨.

يقول الإمام، رحمه الله، في أصناف هؤلاء: «فمن فئة غلبت عليهم أهواؤهم فاتخذوا اسم الدين وسيلة إلى ما تهوى أنفسهم، ومن قوم نبذوا الدين وخرجوا يدعون إلى الإباحية والإلحاد علانية، ومن جماعات يرسلون إلى بلادنا، ويقيمون معاهد ليصلوا فيها بأبنائنا، ويحاولوا صرفهم إلى ملة غير ملتنا. ومن طوائف ابتدعوا نحلات خاسرة، وانتموا بأفواههم إلى الإسلام وقلوبهم تجحده ولا شأن لهم إلا اصطياد الغافلين ومن لم تسبق لهم تربية رشيدة، كما يصنع الفرقتان المدفوعتان إلى تقويض أركان الإسلام واستدراج شعوبه إلى احتمال الذلة والهوان، وهما البهائية[1] والقاديانية[2]، ومن فرق لا شأن لها سوى أن تضع أمام عين الشبان مناظر اللهو والخلاعة، فتصرفهم عن الطريق السوي، وتمشي بهم في عوج فلا يدركوا ما يدركه أولو الجد والعفاف والشهامة من مجد وكرامة»[3].

فتلك الفئات التي تتبنى المذاهب المنحرفة، وتسعى إلى نشرها واصطياد الغافلين من أبناء الأمة الإسلامية يلزم متابعتها ومراقبتها والتصدي لها.

---

(١) البهائية: إحدى الحركات الهدامة التي احتضنتها الصهيونية العالمية لهدم الأديان... ومؤسس هذه الطائفة يسمى حسين علي.. وأصل البهاء لا يستبعد أن يكون يهودياً من يهود إيران.... فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب ابن علي عواجي، ط٣ (دار لينة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ٥١٩/١ باختصار.

(٢) القاديانية: إحدى الفرق الباطنية الخبيثة، ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر في الهند، زعيم القاديانية غلام أحمد القادياني، يزعم أنه ينتمي إلى أسرة أصلها من المغول. فرق معاصرة، ٦٠٢/٢.

(٣) رسائل الإصلاح ١ / ١٥٩.

والآفة في كثير من أبناء الأمة من أهل الثقافة أنه لا يقرأ في الإسلام ما يحصن فكره، ويحميه من التأثر بالشبهات الضالة، والأفكار الخبيثة، وقد يغرر بالبعض ويزج به في هذه البؤر الفكرية بسبب جهله بالدين وعدم قراءاته الجيدة للإسلام، وإطلاعه على المراجع اللازمة لحمايته ولجعله منافحاً عن الفكرة الإسلامية ومدافعاً عن حقائق الإسلام.

وقد عني الإمام في «رسائل الإصلاح» بهذا الجانب العلمي:

«ومن واجب أهل العلم بعد هذا أن يرقبوا حركة الثائرين على الدين ويكونوا على بصيرة بما يكتبونه في الصحف، أو يحضرون به في النوادي ليقوموا أوده وينبهوا على خطره، حتى يستبين أمره، وتتضح أمام الناشئين طريقة قرع الشبهة بالحجة، وصرع الباطل بقوة الحق، وكذلك يفعل العلماء الراسخون، والكتاب المخلصون»[1].

والمعرفة بالشر في الفكر من الواجبات الشرعية، واستبانة سبل المجرمين من المقاصد، التي دعا إليها القرآن الكريم، ومن الإصلاح تثبيت الخير وتدعيمه بالأدلة والبراهين، وأيضاً تعرية الشر وكشفه وفضح أمره وإظهاره علي حقيقته.

ومن أصول المنهج الإصلاحي تنقية الإسلام مما علق به من شوائب وتصفيته مما ألصق به على مر القرون، وهناك شبهات كثيرة حول الإسلام ألصقها به أعداؤه السافرون وخصومه السافلون، وأيضاً ألصقها به أبناؤه الجاهلون وأدعياؤه الكاذبون. والمصلحون يتصدون لهذه الشبهات، وينفونها عن الإسلام، ويظهرون الحقائق جلية.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١٠٢/١.

المبحث الثاني

كشف خطة التآمر الفكري على الإسلام

- المطلب الأول: كشف دعوى الاعتدال في الكتابة:

المنافق عليم اللسان من أخطر الأصناف على المسلمين، فأبسط ما يكون عند أصحاب هذا الاتجاه تغيير الفكر، وتعديل المنهج لمصالح شخصية، ولاعتبارات دنيوية.

يقول الإمام، رحمه الله: «وقد أرتنا الأيام أشخاصاً كانوا يظهرون في اعتدال وغيرة على الحق، ثم اتصلوا بنفر من أهل الدنيا يناوئون هداية الله، فلم يكن منهم إلا أن طرحوا ثوب الاعتدال، وصاروا ينطقون بلهجة أولئك النفر في شيء من التورية»[1].

فالإمام يبين هنا نوعاً يتكلف الاعتدال، ويتظاهر بالإنصاف والحيدة، لكنه في حقيقة الأمر ليس كما يتظاهر به، وذلك بسبب اتصاله بنفر غيروا المسار، وعدلوا الإطار، وزادوا عن المقدار، فبعد أن كان هذا النوع من المنتقدين لغيرهم، والواقفين أمامهم، أصبح يتحدث بلسانهم، ويتكلم بفكرهم، وإن كان يدعي الوقوف أمامهم والتصدي لهم، لكنهم في حقيقة الأمر أبواق للأفكار المسمومة.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٠.

فالإمام، رحمه الله، يبرز هذا النوع بكل علم ووعي بالناس وأصنافهم، وحقيقة الأمر أن الأمة تبتلى بأبنائها أكثر من أعدائها، وأشد ما تبتلى به الأمة من أبنائها ابتلاؤها بعلمائها.

يقول الإمام: «ونذكر بمنتهى الأسف أن من هذا الصنف من يقضي نصيباً من حياته في الدفاع عن الإسلام حتى يتبوأ مقعد الدعاة المصلحين، ثم لا يلبث أن يرى بضاعة الازدراء بالدين نافقة، فيثور عليها مع الثائرين، ويسرع إلى لمز الرجال، الذين رفعوا لواءه وقد كان يطنب في تمجيدهم، وفي أمثال من يكون على هذا النعت خطره على النشء كبير، إذ الثقة التي أحرزها من قبل قد تجعلهم يسيغون أقواله بما تحمل من أقذاء وسموم، فيبلغ مأربه دون أن يفقد مكانته، ثم إن انحرافه عن الدين بعد أن كان من أنصاره قد يلقي في نفوس المستضعفين أن هذا الذي قضى زمناً في مظاهرة الدين لم يتجاف عنه إلا بعد أن بصر بالحجة واستبان له أنه كان على غير هدى»[1].

فهذا الصنف من العلماء خطير على الأمة، وأشد عليها من أعدائها السافرين، وخصومها الواضحين، «والواقع أن هذا الصنف من المنحرفين قد أحدث في بعض البلاد الإسلامية آثار فساد لم يحدث معشارها النابذون إلى الدين على سواء، وكم أرتنا الأيام في هذا الصنف من عجائب دلتنا على أن هناك مغارات يأتمرون بالدين بين حيطانها، ولغة إذا حضرهم بعض

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٠١-١٠٢.

المسلمين يجنحون إلى التخاطب بها، وضروباً من الإغواء يجهدون أنفسهم في تمويهها، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٩)»[1].

فهذه خطة محكمة يقوم بها المتآمرون على الإسلام من خلال صف من المفكرين، الذين يخرجون على المسلمين ويظهرون بثوب الحيدة والاعتدال، وبعد تحقيق مراحل من الخطة يخرجون على الأمة بحقيقتهم المعادية للإسلام وأهله.

وبهذا الاتجاه الفاسد في دراسة الإسلام يكون دين قد ضاعت معالمه بين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

فيلزم المعنيين بعملية الإصلاح مراقبة من يتصدى للدعوة، ويتولى الكتابة عن الإسلام من خلال مساره العلمي، وخطه الفكري الثابت، أو من خلال تعدل مساره وتغير أفكاره، حتى لا يعرض الإسلام على الأمة إلا الأمناء أصحاب الثبات في الفكر، والرؤى الناضجة.

المطلب الثاني: ظاهرة التحول في الكتابة:

هناك آفات تنطوي عليها القلوب، وإن لم يعالجها أصحابها تمتد في القلب امتداد الورم الخبيث في الجسم فتقضي عليه، وكما تتمكن الآفات من عموم الناس تتمكن أيضاً من الكُتَّاب والعلماء، وقد كشفت «رسائل الإصلاح» هذه الآفات، بخبرة ووعي، وقد كان هذا الكشف مشابهاً لما جاء في كتاب «صيد الخاطر» للإمام ابن الجوزي، رحمه الله، الذي ذكر

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٠٤.

في كثير من مواضعه علل قلوب العلماء، والمتصدين للدعوة والإرشاد، وأيضاً كان هذا الكشف مشابهاً ما جاء في كتاب «تلبيس إبليس» للإمام ابن الجوزي والذي أفرد فيه أبواباً خاصة بالتلبيس على العلماء.

والإمام، رحمه الله، عندما يتكلم عن تلك العلل، فهو يبين مخالطته أصحابها، ومتابعته لهم، ووقوفه على تطوراتهم الفكرية، التي جعلتهم في نهاية الأمر يخرجون عن الاعتدال، ويتحاملون على الإسلام.

يقول الإمام: «وصغار العقول لا يشعرون بأن في الناس من يطوي في نفسه حاجة يستطيع أن يلبس لها ثوب الرياء أمداً غير قصير، حتى إذا رأى قضاءها في ذم ما كان يحمد، ومحاربة ما كان ينصر، وجد في استعداده ما يساعده على أن يظهر في أي لباس شاء»[1].

فأصحاب هذه العلل يتأثر بهم الكثير، ويحظون عندهم بالتقدير، وذلك لافتقادهم الخبرة، وعدم توفر الحكمة والفطنة، وإن من خطورة العلل الكامنة في النفوس أنها دعت أصحابها إلى التوجه بالسهام إلى ما كانت تدعو إليه وتدين به وإلى شن الحرب على ما تربت عليه، وهذا لحبها الدنيا، وحرصها على متاعها الفاني.

ومن خبرة الإمام أنه يتكلم عن صنف خبيث لا يفطن إليهم أحد، ولا ينتبه إلى خبثهم إلا أصحاب الخبرة.

---

(١) رسائل الإصلاح، ١/١٠١.

المطلب الثالث: الكتابة السطحية عن الإسلام:

هناك صنف خفاف في العلم، يؤلفون كتباً لا تتمتع بالعمق ولا بالموضوعية.

يقول الإمام: «كان لهذه الكتب أثر سيء في نفوس بعض نشئنا، وقد اتخذ بعض من خف في العلم وزنهم من هذه الكتب وسيلة إلى الطعن في علماء الإسلام فذهبوا يلتقطون هذه الآراء السخيفة ولا يتقون الله في نسبها إلى علماء الشريعة ليضعوا من شأنهم، مع أن أهل العلم من قبلهم، قد نقدوها بأنظار راجحة، وطرحوها من حساب الشريعة بالحجة الساطعة، وجعلوا تبعتها على أصحابها وحدهم»[1].

فمما يبين خبث هؤلاء الكتاب ومدى تآمرهم على النشء، أنهم لا يتمتعون بمقاييس الكتابة العلمية، ولا يكتبون وفق الأطر المحددة لسلامة البحث، ومن تلك الأطر: بيان ضعف الدليل، أو ذكر الردود عليه من المختصين، وإبراز المناقشات حوله بين المختصين في القديم، فالكاتب يتجاوز هذا كله، ويتعامل مع الدليل بهذا الشكل على أنه جديد لم يتناوله أحد، ولم تقم بسببه جهود علمية، ومحاورات، ومناقشات فكرية.

فهؤلاء ممن يكتمون العلم الصحيح، وينشرون العلم الفاسد، الذي يغوي ويردي، ويؤدي إلى إحداث بلبلة وشكوك.

---

(١) رسائل الإصلاح، ٩٨/١.

خاتمة البحث

وتشتمل على النتائج والتوصيات وقائمة المراجع:

- النتائج:

- الالتزام الواضح من الإمام بالاتجاه الإصلاحي في كل مقالات الكتاب، فقد استوعب الفكرة ودار حولها في جميع المقالات ولم يخرج عنها.

- ثراء الفكرة عند الإمام ووجود إشباع لها في أكثر من مقال واستيعاب لمتطلباتها، فالفكرة لم تشرد عنه، ولم تعالج بسطحية.

- شمول الإصلاح كافة المجالات العلمية، والأخلاقية، والاجتماعية، والتربوية، فالإصلاح يشملها وينطلق منها لسعادة الأمة وتحقيق نهضتها.

- عموم المسؤولية لكل راع مسؤول عن رعية، من الحاكم إلى الخادم، فكل على ثغر من الثغور، ويلزمه القيام بالمسؤولية بأمانة وإحسان.

- متابعة الغربيين في النظم الإدارية من أجل تحقيق النهضة على الوجه المأمول، وعدم المتابعة في الأخلاق، التي تتصادم مع ذاتية المسلم، وخصائص المجتمع الإسلامي.

- **التوصيات:**

- دراسة الإمام محمد الخضر حسين دراسة دعوية، والعناية به في رسائل التخصص والعالمية.

- دراسة بقية أجزاء «رسائل الإصلاح» دراسة تحليلية، ودراسة بقية مؤلفاته دراسة تحليلية[1].

- إدارة المشروع الإصلاحي إدارة جيدة واجتماع كافة الهيئات والمؤسسات والمراكز المعنية، وأيضًا أصحاب الرؤى والاتجاهات الفكرية من أجل وضع خطة محددة الملامح وبرنامج عملي لنهضة الأمة.

- تعميم دراسة مادة الثقافة الإسلامية على جميع الجامعات ليتوفر لدى الطالب في أي تخصص المعلومات الصحيحة والخلفية السليمة عن الإسلام.

- السماح من الأزهر باستقبال خريجي الجامعات الأخرى بالكليات الشرعية، وكان هذا مسموحاً به من قبل، وظهرت آثاره الطيبة على خريجي الجامعات الأخرى[2].

والله أسأل الهدى والرشاد والتوفيق والسداد.

---

(١) الحمد لله عز وجل قد استجاب الله تعالى لتوصيتين، وهذا من طوالع السعد، فقد تم تكليف الأخ الدكتور ياسر أبو شبانة بدراسة الجزء الثالث دراسة تحليلية.

(٢) تم بحمد الله صدور قرار بالسماح باستقبال خريجي الجامعات الأخرى بالكليات الشرعية بجامعة الأزهر.

قائمة المراجع

(حسب الترتيب الأبجدي)

- القرآن الكريم.
- أبجديات البحث في العلوم الشرعية (محاولة في التأصيل المنهجي) ضوابط. مناهج. تقنيات. آفاق. أ.د/فريد الأنصاري، ط/أولى سنة١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، دار الكلمة للنشر والتوزيع.
- أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، أ. د/ زغلول راغب النجار، ط/أولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- الإسلام حضارة الغد، د/يوسف القرضاوي، ط/أولى، سنة١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، الحافظ المؤرخ شمس الدين، محمد ابن عبد الرحمن السخاوي، مكتبة الساعي، بدون.
- تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، خالد محمد مصطفى عزب، ط/أولى، سنة١٤١٨هـ/١٩٩٧م، كتاب الأمة، قطر، وزارة الأوقاف.
- تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ط/ ثامنة، سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، دار التراث.
- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، ابن جماعة، بدر الدين ابن أبي إسحاق الكناني.

- التربية الإسلامية، محمد عطية الإبراشي، الدار القومية للطباعة والنشر، ط/أولى، سنة ١٩٦٤م.
- التربية الوالدية رؤية إسلامية، أ. د. سعيد إسماعيل علي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، سنة ٢٠٠٦م.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الريان للتراث، بدون.
- تاريخ الخلفاء، السيوطي، ط/رابعة، سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، المكتبة التجارية الكبرى.
- التعليم وإشكالية التنمية، د. حسن إبراهيم الهنداوي، ط/أولى، ١٤٢٤هـ، وزارة الأوقاف، قطر.
- ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي، ط / ثامنة، مكتبة وهبة، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، دار الريان للتراث، بدون.
- دراسة في البناء الحضاري، د. محمود محمد سفر، ط أولى، كتاب الأمة.
- الدعوة إلى الله تعالى. خصائصها. مقوماتها. مناهجها. (دراسة مقارنة)، د.أبو المجد السيد نوفل، ط/ ثانية، بدون.
- ديوان الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ط/سنة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، دار الريان.

- الدولة العثمانية. عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. علي محمد محمد الصلابي، سنة ٢٠٠٣ م، دار القمة.
- رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين، دار الإصلاح، السعودية، بدون.
- الروح، ابن قيم الجوزية، دار العنان، بدون.
- الطريق إلى العبقرية، د. مقداد يالجن، ط/أولى، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، دار الصحوة.
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، مطبعة أحمد علي مخيمر، بدون .
- الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الحديث، بدون.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، دار السلام.
- فلسفة التجديد الإسلامي (نموذج الشيخ البشير الإبراهيمي)، د. محمد زرمان، ط سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، دار الصحوة للنشر.
- في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم علي محمد أحمد، ط/ أولى، سنة ١٤١٧هـ، وزارة الأوقاف، قطر.
- فضائل مصر، عمر بن يوسف الكندي، ط/أولى، سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م، دار الفكر.
- كيف يحتفظ المسلمون بالذاتية الإسلامية، أنور الجندي، دار الاعتصام، بدون.

- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، ط/ أولى، دار صادر، بيروت.
- لكي تستعيد أمتنا ذاكرتها، د.السيد رزق الطويل، المؤسسة العربية الحديثة.
- مناهج البحث العلمي وآداب الحوار والمناظرة، أ.د فرج الله عبد الباري أبو عطا الله، ط/أولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، بدون .
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي، دار ابن خلدون، بدون.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، مكتبة المتنبي.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، ط/أولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، دار الكتب العلمية.
- مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، بدون.
- مذكرات سائح في الشرق العربي، أبو الحسن علي الحسن الندوي، ط/ثالثة، سنة١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة.
- الملكية في الإسلام، د. عيسى عبده، د. أحمد يحيى، دار المعارف، بدون.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح،محمد قطب، دار الشروق، بدون.

- مجالس العلم في حرم المسجد، د. محمد رجب البيومي، المؤسسة العربية الحديثة، بدون.
- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، وزارة التربية والتعليم.
- الموافقات في أصول الأحكام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي، دار إحياء الكتب العربية، بدون.
- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ط/١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، دار صعب.
- النهضة الإسلامية المعاصرة في سير أعلامها المعاصرين، أ.د. محمد رجب البيومي، سنة ١٤١٥هـ، سنة ١٩٩٥م، دار القلم.
- نحو مجتمع بلا مشكلات، د. محمود محمد عمارة، ط/أولى، مكتبة الإيمان.
- الوصية الكبرى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ط١٤١٠هـ/١٩٩٠م، مكتبة السنة.

الفهرس

وكــــــلاء التـــوزيــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــــر	دار الثقافــــــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــــرين	مكتبـــــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب:١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب:٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ -٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤– صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦– الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيــــــع والترجمــــــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦– الرباط
الجزائـــــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة -الجزائر
إنكلتـــــرا	دار الرعايــــة الإســــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء، تطرح لعامها الحادي عشر موضوع

الحكم الراشد

إطعامٌ من جوع .. وأمانٌ من خوف

قيمة الجائزة (٢٠٠) ألف ريال قطري

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٥م

- **مدخل:**

لمحة تاريخية: نشأة نظام الحكم وتطور أشكاله؛ أهمية الحكم لإدارة المجتمع وتوفير الأمن وفض المنازعات؛ تعريف عام بأنظمة الحكم..

- **المحاور:**

- **في تحرير بعض المفاهيم والمصطلحات:** الحكم من مقومات الإسلام؛ الحاكمية: بين شرع الله ودور الإنسان في تنزيلها على الواقع؛ الأمة؛ الدولة؛ الحكومة؛ الولاية؛ الخلافة؛ الإمامة؛ تطبيق الشريعة وعلاقة التكليف بالاستطاعة؛ دار الإسلام؛ دار الكفر؛ دار العهد.
- **مقومات الحكم الراشد ومسؤولياته:** التزام الشورى في اختيار الحاكم؛ الشورى في إدارة شؤون الحكم؛ تحقيق مقاصد الشريعة حقوق الإنسان (العدل؛ الحرية؛ المساواة...)؛ شرعية المحاسبة والمسؤولية: مسؤولية الحاكم؛ مسؤولية المواطن؛ مسؤولية الأمة؛ مؤهلات أهل الحل والعقد.
- **غياب الفقه السياسي:** أسباب توقف الاجتهاد السياسي؛ الخروج على الحاكم، بين المصالح والمفاسد؛ نظام الحكم بين القيم الضابطة لمسيرة الحكم في الكتاب والسنة والبرامج الاجتهادية.
- **الاجتهادات التراثية ودورها في إعادة البناء:** أبعاد التجربة التاريخية؛ وعطاؤها في الحاضر والمستقبل؛ تجديد وسائل النظر، والاجتهاد لإيجاد أوعية شرعية لمسيرة الأمة والدولة والمجتمع.؛ استئناف الاجتهاد السياسي في ضوء فقه النص وفهم الواقع وتحدياته.
- **الحكم ومعيار الشرعية:** الحكم الراشد: وعلاقة الأمن بالاستقرار والتنمية؛ الشراكة السياسية؛ المواطنة؛ المعارضة؛ التعددية؛ تشكيل الأحزاب؛ غير المسلمين....؛ منظمات المجتمع المدني؛ المنظمات الدولية؛ المعاهدات الدولية؛ مقارنات؛ ومقاربات معاصرة؛ وتميز مقاصد الحكم في الإسلام؛ بناء تصور سياسي للتعامل مع التحديات واستشراف المستقبل.

- **شروط الجائزة:**

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة (A4)، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠.٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨- تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

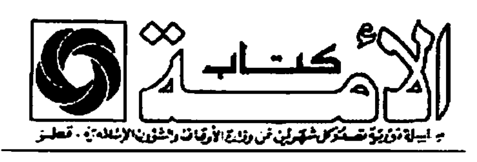
ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤+)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islam.gov.qa



هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠ - فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢ - ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة

صدر منها:

● مشكلات في طريق الحياة الإسلامية	الشيخ محمد الغزالي
● الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف	د. يوسف القرضاوي
● العسكرية العربية الإسلامية	اللواء الركن محمود شيت خطاب
● حول إعادة تشكيل العقل المسلم	د. عماد الدين خليل
● الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري	د. محمود حمدي زقزوق
● المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري	د. محسن عبد الحميد
● الحرمان والتخلف في ديار المسلمين	د. نبيل صبحي الطويل
● نظرات في مسيرة العمل الإسلامي	أ. عمر عبيد حسنه
● أدب الاختلاف في الإسلام	د. طه جابر فياض العلواني
● التراث والمعاصرة	د. أكرم ضياء العمري
● مشكلات الشباب: الحلول المطروحة والحل الإسلامي	د. عباس محجوب
● المسلمون في السنغال.. معالم الحاضر وآفاق المستقبل	أ. عبد القادر محمد سيلا
● البنوك الإسلامية	د. جمال الدين عطية
● مدخل إلى الأدب الإسلامي	د. نجيب الكيلاني
● المخدرات من القلق إلى الاستعباد	د. محمد محمود الهواري
● الفكر المنهجي عند المحدثين	د. همام عبد الرحيم سعيد
● فقه الدعوة: ملامح وآفاق.. في حوار	أ. عمر عبيد حسنه
● قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر	د. زغلول راغب النجار

العنوان	المؤلف
● دراسة في البناء الحضاري	د. محمود محمد سفر
● في فقه التدين فهمًا وتنزيلاً	د. عبد المجيد النجار
● في الاقتصاد الإسلامي	د. رفعت السيد العوضي
● النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية	د. محمد مفتي ود.سامي الوكيل
● أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق	د. أحمد محمد كنعان
● المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي	د.عبد العظيم محمود الديب
● مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي	نخبة من المفكرين والكتاب
● مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح	د. ماجد عرسان الكيلاني
● إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها	د. ماجد عرسان الكيلاني
● الصحوة الإسلامية في الأندلس	د. علي المنتصر الكتاني
● اليهود والتحالف مع الأقوياء	د. نعمان عبد الرزاق السامرائي
● الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع	أ. منصور زويد المطيري
● النظم التعليمية عند المحدثين	أ. المكي أقلاينة
● العقل العربي وإعادة التشكيل	د. عبد الرحمن الطريري
● إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق	د. يوسف إبراهيم يوسف
● أسباب ورود الحديث	د. محمد رأفت سعيد
● في الغزو الفكري	د. أحمد عبد الرحيم السايح
● قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي	د. أكرم ضياء العمري
● فقه تغيير المنكر	د. محمد توفيق محمد سعد
● في شرف العربية	د. إبراهيم السامرائي

العنوان	المؤلف
● المنهج النبوي والتغيير الحضاري	أ. برغوث عبد العزيز بن مبارك
● الإسلام وصراع الحضارات	د. أحمد القديدي
● رؤية إسلامية في قضايا معاصرة	د. عماد الدين خليل
● المستقبل للإسلام	د. أحمد علي الإمام
● التوحيد والوساطة في التربية الدعوية	أ. فريد الأنصاري
● الإسلام وهموم الناس	أ. أحمد عبادي
● التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون	د. عبد الحليم عويس
● عمرو بن العاص.. القائد المسلم.. والسفير الأمين	اللواء الركن محمود شيت خطاب
● وثيقة مؤتمر السكان والتنمية.. رؤية شرعية	د. الحسيني سليمان جاد
● في السيرة النبوية.. قراءة لجوانب الحذر والحماية	د. إبراهيم علي محمد أحمد
● أصول الحكم على المبتدعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية	د. أحمد بن عبد العزيز الحليبي
● من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق	أ. عبد الله الزبير عبد الرحمن
● عبد الحميد بن باديس "رحمه الله" وجهوده التربوية	أ. مصطفى محمد حميداتو
● تخطيط وعمارة المدن الإسلامية	أ. خالد مصطفى عزب
● نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال	د. مالك إبراهيم الأحمد
● المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب	د. سالم أحمد محل
● من فقه الأقليات المسلمة	أ. خالد عبد القادر
● الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي	د. عبد المجيد السوسوة الشرفي
● النظم التعليمية الوافدة في أفريقيا..قراءة في البديل الحضاري	د. قطب مصطفى سانو
● إشكاليات العمل الإعلامي.. بين الثوابت والمعطيات العصرية	د. محيي الدين عبد الحليم
● الاجتهاد المقاصدي.. حجيته.. ضوابطه.. مجالاته	د. نور الدين مختار الخادمي
● القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر	أ. عبد المجيد بن مسعود
● أضواء على مشكلة الغذاء في العالم العربي	أ. عبد القادر الطرابلسي

العنوان	المؤلف
● نحو تقويم جديد للكتابة العربية	أ. د. طالب عبد الرحمن
● دور المرأة في رواية الحديث في القرون الثلاثة الأولى	أ. آمال قردلش بنت الحسين
● الإعلان من منظور إسلامي	د. أحمد عيساوي
● تكوين الملكة الفقهية	أ. د. محمد عثمان شبير
● الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري.. أنموذج مالك بن نبي	أ. بدران بن مسعود بن الحسن
● الترويح وعوامل الانحراف.. رؤية شرعية	أ. عبد الله بن ناصر السدحان
● فقه الواقع .. أصول وضوابط	أ. أحمد بو عود
● دعوة الجماهير.. مكونات الخطاب ووسائل التسديد	د. عبد الله الزبير عبد الرحمن
● استخدام الرسول ﷺ الوسائل التعليمية	أ. حسن بن علي البشاري
● المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية	أ. سعيد شبار
● عالم إسلامي بلا فقر	د. رفعت السيد العوضي
● نحن والحضارة والشهود	د. نعمان عبد الرزاق السامرائي
● القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي	د. محمد أبو الفتح البيانوني
● التفكك الأسري .. الأسباب والحلول المقترحة	مجموعة من الباحثين
● الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام	أ. نور الدين بليبل
● التفكك الأسري .. دعوة للمراجعة	مجموعة من الباحثين
● ظاهرة العولمة .. رؤية نقدية	د. بركات محمد مراد
● حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة	مجموعة من الباحثين
● حقوق الإنسان بين الشريعة والقانون	د. منير حميد البياتي
● البعد الحضاري لهجرة الكفاءات	مجموعة من الباحثين
● معالم تجديد المنهج الفقهي.. أنموذج الشوكاني	أ. حليمة بو كروشة
● الطفولة.. ومسؤولية بناء المستقبل	أ.د. نبيل سليم علي
● في الاجتهاد التنزيلي	د. بشير بن مولود جحيش

• لا إنكار في مسائل الخلاف	د. عبد السلام مقبل المجيدي
• من أساليب الإقناع في القرآن الكريم	د. معتصم بابكر مصطفى
• الغرب ودراسة الآخر.. أفريقيا أنموذجاً	د.علي القريشي
• قضية المرأة.. رؤية تأصيلية	د.سعاد عبد الله الناصر
• التعليم وإشكالية التنمية	د.حسن بن إبراهيم الهنداوي
• الحوار (الذات.. والآخر)	د.عبد الستار إبراهيم الهيتي
• الخطاب التربوي الإسلامي	أ.د. سعيد إسماعيل علي
• اللغة وبناء الذات	مجموعة من الباحثين
• عمر فروخ (رحمه الله).. في خدمة الإسلام	د. أحمد العلاونة
• مهارات الاتصال	راشد علي عيسى
• علوم حضارة الإسلام ودورها في الحضارة الإنسانية	د. خالد أحمد حربي
• إحياء الفروض الكفائية سبيل تنمية المجتمع	د. عبد الباقي عبد الكبير
• مهارات التربية الإسلامية	د. عبد الرحمن بن عبد الله المالكي
• عولمة الجريمة.. رؤية إسلامية في الوقاية	أ.د. أحمد شلال العاني
• ضوابط في فهم النص	د. عبد الكريم حامدي
• في أدب الأطفال	محمد بسام ملص
• وثيقة المدينة.. المضمون والدلالة	أحمد قائد الشعيبي
• منهج السياق في فهم النص	د. عبد الرحمن بودرع
• التقنيات الحديثة.. فوائد وأضرار	أ.د. شعاع هاشم اليوسف
• البعد المصدري لفقه النصوص	د. صالح قادر الزنكي
• حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي	أ. يسري محمد أرشد
• الدعاء.. سبيل الحياة الطيبة	د. سعاد الناصر

العنوان	المؤلف
● العربيـــــة تواجـــــه التحـــــديات	أ.د. طالـــب عبـــد الـــرحمن
● النص الشرعي وتأويلـه.. الـشاطبي أنموذجـاً	د. صـــالح بلقاســـم ســـبوعي
● الحاكميـــــة في الفكـــــر الإســـــلامي	د. حـــسن موســـى لحـساسنة
● أوقاف الرعايــة الــصحية في المجتمــع	د. أحمد عـــوف عبـــد الـــرحمن
● فقه الوســائل في الــشريعة الإســلامية	د. أم نائـــــــل بركـــــــاني
● الحضارة الإسلامية جــذور وامتــدادات	د. ســـــعاد رحـــــائم
● حرية الرأي في الإسلام.. مقاربة في التصور والمنهجية	د. محمد عبد الفتـــاح الخطيـــب
● الإدارة التربوية.. مقدمات لمنظور إســلامي	د. عـــــارف عطـــــاري
● انتـــــشار الإســـــلام في كوســـــوفا	أ. ســـامر بـــيروش أحمـــدي
● توطين العلوم في الجامعات العربية والإسلامية	د. علـــــــي القريـــــــشي
● استشراف المستقبل في الحديث النبــوي	د. إليـــــــاس بلكـــــــا
● مـــن وســـائل القـــرآن في إصـــلاح المجتمـــع	أ. أمـــين نعمـــان الـــصلاحي
● تعامـــل الرســـول ﷺ مـــع الأطفـــال تربويـــاً	د. حصة بنت محمد بن فالح الصغير
● المـــشروع الحـــضاري لإنقـــاذ القـــدس	أ. أحمد عبد الفتـــاح حليقـــاوي
● إدارة الأزمة : مقاربة التراث.. والآخـــر	أ.د عبـــد الله إبـــراهيم الكـــيلاني
● نحو فقه للاستغراب.. مقاربة نظرية وتاريخية	د. محمـــــــد البنعيـــــــادي
● قيم السلوك مع الله عند ابن القيم الجوزيـــة/ج١	أ.د. مفرح بن سليمان القوســـي
● قيم السلوك مع الله عند ابن القيم الجوزيـــة/ج٢	أ.د. مفرح بن سليمان القوســـي
● إحياء دور الوقف لتحقيق مـــستلزمات التنميـــة	د. أســـامة عبـــد المجيـــد العـــاني
● الآثار الاجتماعية للتوسع العمراني.. المدينة الخليجيـــة أنموذجـــاً	د.عبد الله بن ناصـــر الـــسدحان
● الـــتفكير الموضـــوعي في الإســـلام	د. فـــــــؤاد البنـــــــا
● الحريـــة وتطبيقاتهـــا في الفقـــه الإســـلامي	د. محمـــد محمـــود الجمـــال

● قيم الإسلام الحضارية.. نحو إنسانية جديدة	د. محمد عبد الفتاح الخطيب
● أصحاب الاحتياجات الخاصة.. رؤية تنموية	د. محمد بن عبد الكريم مراح
● موقع المرأة النخبوي في مجتمع الرسالة	د. ليلى مراد
● منهج النظر المعرفي بين أصول الفقه والتاريخ	د. الحسان شهيد
● لغة الخطاب الدعوي	د. بشير عبد الله المساري
● فقه السياسة الشرعية.. الجويني أنموذجاً	د. عمر أنور الزبداني
● العولمة والتربية.. آفاق مستقبلية	أ.د. أحمد علي الحاج محمد
● فقه التنزيل عند الإمام ابن تيمية	أ. جميلة حسن تلوت
● في المنظور الحضاري: المنظمات الدولية.. رؤية تأصيلية	د. سامي الخزندار
● الأخلاق والسياسة.. قراءة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه	أ.د. موفق سالم نوري
● مقاصد القضاء في الإسلام.. التنظيم القضائي	أ.د. حاتم بوسمة
● مقاصد القضاء في الإسلام.. إحقاق الحق	أ. د. حاتم بوسمة
● علم الجمال.. رؤية في التأسيس القرآني	د. عبد العظيم صغيري
● قراءة في فكر مالك بن نبي	أ. عبد الوهاب بوخلخال
● الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية.. دراسة مقارنة	أ.د. عبد الله محمد الأمين
● نحو قِراءَةٍ نصيّةٍ في بَلاغَةِ القُرآن والحَديثِ	أ.د. عبد الرحمن بودرع
● العروج الحضاري: بين مالك بن نبي.. وفتح الله جولن	أ.د. فؤاد عبد الرحمن البنا
● المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات	مجموعة من الباحثين
● أخلاقيات التعامل الأسري في السيرة النبوية	د. عبد الله بن ناصر السدحان
● تطوير التعليم الشرعي: حاجة.. أم ضرورة؟	د. محمد بن عبد الله الدويش